الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتوري قسنطينة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ و علم الآثار

موضوع البحث

جامع الزيتونة والحركة الإصلاحية في الجـــزائر (1908-1954)

رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر
(تاريخ الحركة الوطنية المغاربية)

إعداد الطالب:
رابـح فلاحي

تحت إشراف الأستاذ الدكتور:
عبد الكريم بوصفصاف

السنة الجامعية: 1428هـ / 2007-2008م

بسم الله الرحمن الرحيم

"من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله

عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر

وما بدلــــوا تبديــلا"

(سورة الأحزاب)

الإهداء

"ربي أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين" (النمل)

إلى من سهرا وكدا من أجلي

إلى والدي الكريمين حفظهما الله

إلى الشموع التي احترقت من أجل أن تضيء الجزائر بالعلم والمعرفة

إلى روح علماء الإصلاح والتجديد في الجزائر الذين وهبوا أنفسهم وضحوا بحياتهم من أجل أن تحيا الجزائر عربية مسلمة.

إلى كل هؤلاء أقدم هذا العمل وأرجوا أن يتقبله الله عنده من الأعمال الصالحات

شكر وتقدير

يسرني ويسعدني بعد الإنتهاء من إعداد هذه الدراسة أن أتوجه بعظيم شكري وخالص إمتناني لأستاذي الفاضل، الأستاذ الدكتور عبد الكريم بوصفصاف المشرف على هذه الرسالة، إعترافا له بالجميل الكبير في إنجازها، من خلال توجيهاته الرشيدة ونصائحه السديدة رغم وقته الثمين وعلى حساب عطلته الصيفية، وهذا كله من أجل إتمام هذا العمل في آجاله المحددة.

فله منا كل التقدير والإكبار.

وإلى كل من ساهم في إتمام هذا العمل من قريب أو بعيد، فلهم منا جزيل الشكر والإحترام.

□

المقدمة

المقدمـــة:

1- أهمية الموضوع:

من الثابت تاريخيا أن الحركات الوطنية المغاربية على اختلاف توجهاتها، قد نضجت تماما في نهاية النصف الأول من القرن العشرين، و توجت مجهوداتها تلك بالكفاح المسلح كخيار وطني وقومي لا رجعة فيه، وكان التلاحم فيما بين هذه الحركات باديا من خلال مد أيدي بعضها إلى بعض.

وإذا كان اثر جامع الزيتونة على الحركة الوطنية التونسية جليا واضحا فان الحركة الإصلاحية الجزائرية ارتبطت ارتباطا وثيقا بهذا الجامع تأثرا و تأثيرا، و دراسة الحركة الإصلاحية الجزائرية التجديدية في هذه الفترة شديد الصلة بتونس، وجامع الزيتونة بالخصوص، ولمعرفة نهج حركة الإصلاح وينابيع تفكيرها وأهدافها كان لابد من الرجوع إلى الزيتونة، لأن تكوين زعماء الإصلاح في الجزائر كان أغلبهم زيتونيين، ولعل ذلك يعود لعوامل جغرافية وتاريخية ستتضح تدريجيا في متن البحث.

2- أسباب اختيار الموضوع:

وقع اختياري علي هذا الموضوع "جامع الزيتونة والحركة الإصلاحية في الجزائر في النصف الأول من القرن العشرين (1908-1954)" لعدة أسباب أبرزها:

*- إن هذه الفترة كانت حبلى بالتحولات السياسية والثقافية والإجتماعية ونحو ذلك من الأحداث والتطورات الداخلية والخارجية، كما كانت التاريخ البارز في الفصل بين الكفاح المسلح والنضال السياسي في الجزائر، بعد فشل المقاومة المسلحة لاسيما بعد ثورتي عين بسام وعين تركي 1906، وبداية ظهور إرهاصات الحركة الوطنية السياسية على مستوى النخبتين العصرية والمحافظة وبداية المعارضة السياسية ضد التجنيس الإجباري والتجنس المشروط.

*- ظهور تلاحم علمي وثقافي بين الجزائر وتونس وما ترتب عنه من تضامن وانسجام في الرؤى للحاضر والمستقبل كنتيجة لتلك الوحدة الثقافية والدينية والجغرافية والتاريخية.

*- كان هدفي في إثارة هذا الموضوع هو محاولة لإبراز دور المؤسسات الدينية والثقافية في إذكاء الشعور القومي والوطني والانتماء إلى حضارة واحدة بدلا من النظرة الضيقة، فقد تدفع المصائب والنوائب إلى التوحد والإحساس المشترك أكثر من السعة والرخاء.

*- والحق أن زياراتي العديدة إلى تونس الشقيقة قد شكلت لدي إحساسا بلحمة قوية بين الشعبين تعود في الأصل إلى أعماق التاريخ ولذا أردت إبراز هذا التوجه من خلال أكبر مؤسسة علمية في تلك الفترة و سر توافد الجزائريين عليها.

*-أردت كذلك إبراز وتوضيح أثر العنصر الجزائري في تونس سواء في المؤسسات التعليمية أو في الحقل السياسي والثقافي كامتداد للحركة الإصلاحية الجزائرية التي ألقت بضلالها على كامل أقطار البلدان المغاربية.

*- إن دراسة موضوع جامع الزيتونة وعلاقاته بالحركة الإصلاحية بالجزائر يبين فعلا ذلك الانصهار الذي حصل بين الجزائر وتونس و يؤكد مدى الترابط الذي كان بين الشعبين وأن التلاحم متجذر في أعماق الأمة.

*- علاوة على هذه الأسباب كلها فقد أحببت هذا الموضوع لاسيما بعد إطلاعي على مفكرين وعباقرة صنعوا تاريخ هذه المنطقة العربية، لم يوفوا حقهم من البحث والتنقيب والدراسة والتحليل.

*- ثم إن جامع الزيتونة في الواقع الذي كان منارة وذخرا لتونس و المغرب العربي قاطبة صار اليوم مزارا ومتحفا لا يؤمه الناس إلا للسياحة أو بعض الدروس الهامشية.

3- إشكالية البحث

إن نقطة البحث الأساسية التي انطلقت منها في هذا الموضوع هي محاولة تبيان تلك العلاقة التي كانت بين جامع الزيتونة وحركة الإصلاح والتجديد في الجزائر في مرحلة الدراسة (1908-1954)، ومن ثم إبراز دور حركة الإصلاح في الساحة العلمية و الفكرية و السياسية، والإشكال الأكثر إثارة في هذا الموضوع هو الوقوف على العلاقة بين المصلحين المجددين في الجزائر والمؤسسة الدينية الثقافية التقليدية "جامع الزيتونة"، وهل السياسة التي اعتمدها المستعمر ردحا من الزمن بهدف سلخ الأمة عن مقوماتها وشخصياتها قد أتت أكلها ؟.

وهل الجوار يفرض دوما ذلك التعاون والتلاحم أم أنها إملاءات جغرافية وتاريخية فحسب؟.

أم أن وحدة الهوية هي التي ألزمت الأمة بهذا التوجه وقد يسوقنا هذا إلى تأكيد نتائج مهمة ترسم لنا مستقبلا أمثل، وتوضح لنا أهمية الترابط والوحدة بين الأمة المغاربية.

4- حدود البحث:

لما كانت هذه الفترة المخصصة للدراسة، فترة خصبة في تاريخ الحركات المغاربية، حيث تبلور فيها العمل الإصلاحي في الجزائر وبروزه بشكل أوضح في ضل تواجد مصلحين أفذاذ لم تنجب الجزائر أمثالهم من قبل، والبصمات التي تركوها تدل على مدى تأثيرهم في الأمة ماضيا وحاضرا وربما مستقبلا.

كما أن سنة 1954 التي تعتبر محطة أخيرة لنضال سياسي مرير كانت ضرورة حتمية في تحول المقاومة الوطنية من نضال الكلمة إلى نضال البندقية في 1 نوفمبر 1954.

5- منهج البحث:

باعتبار أن البحث يتناول موضوع حركة الإصلاح الجزائرية وجامع الزيتونة وتأكيد العلاقة بينهما، فقد اعتمدت المنهج التاريخي الوصفي الاستقرائي مع اللجوء إلى التحليل و النقد والمقارنة أحيانا لأن المرحلة عرفت احتدامات فكرية وسياسية، فبينما ذهب البعض إلى تهميش المؤسسات الدينية والحركات الإصلاحية عموما واعتبارها حركات تهدئة ومهادنة، يرى البعض الآخر أنها تمثل حجر الزاوية في حماية العقيدة ومقومات الأمة وأنه بدونها كانت الأمة ستتعرض لمسخ شخصيتها وفقدان لغتها الوطنية ومميزاتها الثقافية والأدبية والعلمية، فالحفاظ على هذه المقومات إنما يعود بالدرجة الأولى إلى هذه النخبة وتلك المؤسسات الدينية.

انطلاقا من هذه النقاط المضيئة جاءت فكرة إبراز دور المؤسسات التعليمية ودور النخبة الإصلاحية التجديدية بطريقة علمية وموضوعية، وإن كنت أقر بوجود عاطفة جياشة تحاول فرض إملاءاتها على القلم والفكر عندما أكون بصدد تحرير فصول هذه الرسالة، وهذه مسألة طبيعية عند البشر فمهما حاول الإنسان التخلص من هذه النزعة إلا وجد نفسه مكبلا بمشاعرها الفياضة أحيانا، ومهما يكن من أمر فقد حاولت أن أتعامل مع الموضوع تعاملا علميا أكاديميا يتوخى الحقيقة قبل كل شيء.

6- صعوبات البحث:

قد واجهتني صعوبات جمة كسائر كل باحث يحاول صبر أغوار موضوع أو موضوعات نادرة الذيوع والانتشار في الدراسات العلمية والأكادمية لا سيما في البلد الذي أنتمي إليه وهذه مسألة متوقعة منذ أن يبدأ الطالب في لم شتات بحثه ولم أطراف موضوعه.

لكن المشكلة ليست في موضوع البحث ذاته بقدر ما هي في المرجعية العلمية التي يعتمدها الباحث في رسالته ولا شك أن الصعوبات التي واجهتني في إعداد هذا البحث هي من هذا النوع، والتي جعلتني أشد الرحال إلى تونس إذ أنني لم أشفي غليلي في جمع المادة الخبرية من المصادر المتوفرة في المكتبات الوطنية الجزائرية، فقد سافرت المرة تلو المرة إلى المكتبات التونسية خاصة منها مكتبة العطارين و جامعة الزيتونة ومركز الدوريات والمركز الوطني للأرشيف، ولم يمكن الحصول على كل ما أردناه من وثائق ومراجع وإنما استطعت أن أحصل على جزء مهم منها.

ومن العقبات التي وقفت في طريقي أن بعض مصادر البحث ومراجعه كانت باللغة الأجنبية وكان يتطلب ذلك ترجمتها للاستفادة منها في الموضوع، وتطلب ذلك وقتا طويلا، وأعترف أنني بحثت عن بعض المصادر التي أعتقد أنها مهمة في الموضوع ولكن لم أعثر عليها بسبب فقدانها أو صعوبة الحصول عليها.

رغم ذلك فإنني استطعت ولله الحمد أن أجمع كما معتبرا من المصادر الأساسية والمراجع العلمية وأن أطالعها مطالعة متأنية وأن أستخلص منها المادة العلمية الخاصة بموضوع البحث، ثم قمت بدراستها وتحليلها وتحريرها وتوزيعها حسب فصول الرسالة ومباحثها، فإن وفقت في ذلك فبعون الله وتوجيهات الأستاذ المشرف الذي لم يبخل علي بما يجعل هذا البحث قابلا للمناقشة والتثمين فإن أخفقت لا قدر الله فحسبي أنني ساهمت بقدر الإمكان في إضافة لبنة جديدة إلى المكتبة العربية الجزائرية مهما كان نوعها.

7- الكتب التي تناولت الموضوع:

لا ادعي أن هذا الموضوع هو جديد، فالواقع أنه اثري من طرف مؤلفين كثيرين سواء في تونس أو الجزائر وسواء من اللذين عايشوا تلك الفترة أو المعاصرين، لكن منهم من أشار إلى طبيعة العلاقة بين المؤسسات التعليمية والحركات الوطنية بالعموم ليس بالخصوص ومنهم من تناول جامع الزيتونة على حدى وهم كثر في تونس ومنهم من تناول موضوع الإصلاح في الجزائر وهم كذلك كثيرون، ولعل أكثر الكتب التي أشارت إلى هذا الموضوع أهمها كتاب "النشاط الفكري والعلمي للطلبة الجزائريين بتونس" لمحمد صالح الجابري حيث أشار بوضوح لدور العلماء الجزائريين في المجال الأدبي والسياسي والفكري، وكتابه المتميز بعنوان التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس والذي طبع سنة 1991 بلبنان وقد حوى جانبا من الموضوع، كذلك كتاب علماء الجزائر في الوطن العربي لعمار هلال وذلك في فصل خاص بعلماء الجزائر نحو تونس، وكتابات أستاذنا الدكتور عبد الكريم بوصفصاف لاسيما منها كتاب الفكر العربي الحديث والمعاصر (محمد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجا) الجزء الأول مطبوعا والجزء الثاني والثالث تحت الطبع، وكتاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية وكذلك كتابات رابح تركي سواء فيما تعلق بكتاب عبد الحميد ابن باديس، رائد الإصلاح والتربية في الجزائر أو كتاب التعليم القومي والشخصية الجزائرية، كذلك كتاب الوضع العام للتعليم الزيتوني حتى إصلاح 1951 لعلي الزيدي، دون أن ننسى كتاب أبو القاسم سعد الله "الحركة الوطنية الجزائرية" الجزء الثاني والثالث وكتب أخرى عديدة اعتمدتها كمراجع أساسية للموضوع.

8- وصف مصادر البحث ومراجعه:

أما بخصوص مصادر البحث ومراجعه المعتمدة فيمكن تصنيفها حسب أهميتها على النحو الآتي:

أولا: الجرائد والمجلات التي كانت تصدر في مرحلة الدراسة وهي من أهم المصادر على الإطلاق لأنها صحف رأي ومبدأ ومقال وليست صحفا للدعاية ونقل الأخبار المثيرة فحسب، وبالتالي كانت الوسيلة الأساسية لحركات الإصلاح والمؤسسات الدينية، بل أن هذه الصحف كانت الذي يربط الزعماء وجموع الأمة والمؤسسات العلمية، وتجدر الإشارة هنا إلى أني عثرت على مادة خبرية هامة في الدوريات التونسية التي كانت تصدر إبان مرحلة الدراسة، ومن أهمها جريدة الوزير، العصر الجديد، الزهرة، وكذلك الصحف الجزائرية التي كانت تصدر آنذاك لاسيما منها الشهاب والبصائر والتي كانت بمثابة المادة الأولى للبحث خاصة منها مجلة الشهاب وهي صحيفة كانت تصدر في قسنطينة لمؤسسها الشيخ بن باديس، وقد كانت في الأول جريدة حتى 1929 ثم تحولت إلى مجلة إلى غاية 1939، وقد كانت منبرا فكريا ونقديا وأدبيا وإصلاحيا للمجتمع الجزائري خاصة والعربي بصورة عامة، وهي صحيفة تميزت بجدية مقالاتها وتنوع موادها وتفتحها على العصر، فكانت تجمع بين أصالة الأمة وحداثة العصر وقد استخدمتها في موضوع البحث في الفصول الأساسية فيه خاصة في الفصل الثاني والفصل الثالث.

ومن المصادر كذلك جريدة البصائر وهي جريدة أسبوعية ولسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وقد تميزت برصد المقالات ونشر الكتب المؤلفة وترجمة بعضها، كما اهتمت بالجانب الإصلاحي والسياسي والديني للمجتمع الجزائري والعربي، وقد وظفت في عموم البحث.

ثانيا: النشريات التي كانت تصدرها الزيتونة والجمعيات الثقافية والنوادي العلمية بتونس في ذلك الوقت والتقارير التي أمكن الإطلاع عليها في الأرشيف الوطني في تونس خاصة أرشيف وزارتي الداخلية والخارجية.

ثالثا: الكتب التي تناولت جانبا من الموضوع أو خصصت له فصلا لاسيما من المعاصرين لتلك الفترة ولعل أبرزها كتاب "النشاط العلمي والفكري للطلبة الجزائريين في تونس" لمحمد الصالح الجابري، وهو كتاب يرصد حركة الطلبة الجزائريين في تونس خلال فترة الدراسة وهو كتاب مهم لأنه تناول صميم البحث الذي تناولته ولاسيما أن مؤلفه مواطنا تونسيا يكون أقرب إلى الحقيقة من غيره وقد اعتمدت عليه خاصة في الفصل الثاني من الرسالة – رواد الحركة الإصلاحية الجزائرية في تونس– وكتاب مذكرات أحمد توفيق المدني (حياة كفاح) لاسيما جزءه الأول الذي أشار بوضوح إلى فترة الدراسة، كما أنه يشكل تجربة رائدة لصاحبها، وهو أحد رموز الإصلاح قضى جزءا كبيرا من حياته في تونس، وكان له دور فعالا في الحركة الإصلاحية والوطنية في الجزائر.

ومن الكتابات التي اعتمدت عليها كذلك كتابي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931–1945، وكتاب الفكر العربي الحديث والمعاصر (محمد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجا) وهو دراسة تاريخية وفكرية مقارنة لأستاذنا الدكتور عبد الكريم بوصفصاف.

إضافة إلى كتابات أبو القاسم سعد الله ومحمد الطاهر بن عاشور وكتابه امرأتنا في الشريعة والمجتمع للطاهر حداد.

كما أنني استفدت كثيرا من أعمال الندوة الدولية الحادية عشر حول "الزيتونة الدين والمجتمع والحركات الوطنية في المغرب العربي" المنعقدة بتونس في شهر ماي 2002، إضافة إلى ذلك فقد استفدت من المراجع باللغة الأجنبية ولاسيما منها كتابات شارل أوندري جوليان وشارل روبير أجيرون وكتابه تاريخ الجزائر المعاصر وكتاب:

Le réformisme musulmane algérien 1925-1940، لمؤلفه علي مراد.

وكتاب: Mouvement réformiste et populaire en Tunis (1906-1912). لمؤلفه توفيق عيادي

*** خطة البحث:**

اشتمل هذا البحث على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة وملاحق، حيث احتوى كل فصل على مباحث أساسية مرتبطة ببعضها البعض وقد قدمت لكل فصل بمدخل ثم خاتمة.

الفصل الأول تناول :"دور المؤسسات التعليمية في الحفاظ على الهوية المغاربية" وهو بمثابة مدخل أساسي للموضوع، حيث تحدثت فيه عن حالة الثقافة في الجزائر قبل الاحتلال وبعده والسياسة التي انتهجها من أجل القضاء على الثقافة والشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائر ثم أشرت إلى إرهاصات ظهور الحركة الإصلاحية في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، مع التأكيد على العوامل التي أثرت في النهضة والبعث، أما في المبحث الثاني فقد تعرضت فيه إلى واقع الثقافة في تونس قبل إصلاحات خير الدين باشا وأهمية جامع الزيتونة ثم تناولت بداية النهضة والعوامل المؤثرة فيها، ودور المؤسسة الدينية والثقافية في حركتي النهضة والبعث وانتهيت بخاتمة على شكل خلاصة، ثم عرض النتائج التي استخلصتها من خلال هذا الفصل.

أما الفصل الثاني فقد تناولت فيه: "رواد الطلبة الجزائريين في جامع الزيتونة" وهذا الفصل بدوره قسمته إلى ثلاثة مباحث هي على النحو الآتي:

– أسباب اختيار الجزائريين لجامع الزيتونة دون غيره من المؤسسات الأخرى، حيث كانت وجهة أغلب الطلبة الجزائريين إلى تونس وسواء أكان ذلك بسبب العوامل الجغرافية أو لأسباب استعمارية أو لروابط حضرية، فالثابت أن فرنسا منعت التعليم العربي في الجزائر وأغلقت الدور ومراكز التعليم مما أدى بالكثير إلى الإلتحاق بجامع الزيتونة أو المعاهد التونسية الأخرى وفي كل الحالات فإن جامع الزيتونة ظل المدرسة الثانية لكثير من طلاب الجزائر.

– أما المبحث الثاني فقد خصصته لدور ابن باديس وعلاقته برواد الإصلاح والتجديد من خريجي الزيتونة، لاسيما وأن ابن باديس كان قد أرسى دعائم البعثات من الجزائر إلى تونس منذ رجوعه منها سنة 1913.

أما المبحث الثالث فقد تناولت فيه دور خريجي الزيتونة في الساحة العلمية والفكرية والسياسية في تونس والجزائر، فكثير من الجزائريين بدؤوا نشاطهم العلمي والسياسي من تونس لينتهي بهم الأمر إلى الجزائر، كما أن الكثير من البارزين في الفكر والسياسة التونسيين يعودون إلى أصول جزائرية ومن هنا عقدت تلك العقدة المتينة بين البلدين وانتهى البحث بخاتمة رصدت فيها أهم الاستنتاجات والملاحظات.

– وقد كرست الفصل الثالث لــ "أثر جامع الزيتونة في حركة الإصلاح والتجديد بالجزائر" وفيه حاولت أن أبين أثر جامع الزيتونة على المصلحين الجزائريين المجددين من خلال إثارة قضايا ذات أهمية وهي:

– قضايا النهضة والإصلاح ومدى أثر جامع الزيتونة في ذلك.

– قضايا التربية والتعليم وكيف كان تأثير الزيتونة على حركة الإصلاح والتعليم في الجزائر.

– مسألة محاربة الطرقية وكيف واجهها الجامع الأعظم وحركة الإصلاح في الجزائر.

– مسألة التجنس وكيف كان رد حركة الإصلاح والتجديد في تونس والجزائر.

– قضايا المرأة العديدة وكيف عولجت في تونس ومدى تأثر الحركة الإصلاحية التجديدية في الجزائر بالتيارات التونسية في هذا المجال.

– قضايا الإعلام ودور تونس في بروز كوكبة من الإعلاميين والصحفيين من دعاة الإصلاح والتجديد في الجزائر.

وقد أنهيت هذا الفصل بخاتمة على شكل خلاصة واستنتاجات.

- أما الفصل الرابع فقد خصصته لـــ "موقف الإحتلال الفرنسي من خريجي جامع الزيتونة" حيث لم يقتصر موقفه على الزيتونيين الجزائريين فحسب بل شمل الزيتونيين التونسيين كذلك الذين كان لهم دور عظيم في إنجاب الحركة الوطنية التونسية وقد قسمت هذا الفصل إلى أربع مباحث أساسية وهي:

- موقف الحماية من خريجي جامع الزيتونة.
- موقف السلطة والمحافظين والأحزاب التونسية من خريجي جامع الزيتونة.
- رد فعل الاحتلال الفرنسي على حركة الإصلاح والتجديد في الجزائر.
- موقف الإتجاهات السياسية والفكرية الجزائرية من حركة الإصلاح والتجديد في الجزائر.

وقد بينا في هذا الفصل الأساليب التي أعتمدها الاحتلال لمحاولة إجهاض مشروع الإصلاح الذي كان يسير بهدوء ورتابة إلا أنه كان موجة كاسحة بمثل موجة (تسونامي) في نتائجها وآثارها.

وقد انتهيت في آخر الرسالة إلى خاتمة كانت بمثابة عرض للنتائج المتوصل إليها وتأكيد للأهداف التي حققتها المؤسسات الدينية والثقافية وحركة الإصلاح الوطنية الجزائرية وهي أن المؤسسات الدينية الثقافية كانت بمثابة المدرسة التي أنجبت رجالا عظاما، والذين أسسوا لتلك النهضة الفكرية والبعث الثقافي للحفاظ على الشخصية الوطنية سواء في تونس
أو الجزائر، وأن هؤلاء الرواد هم الذين صنعوا القاعدة التنظيرية للكفاح المسلح في بداية الخمسينات.

بعد ذلك أثرت جملة من التساؤلات لتقييم هذه الفترة وتأثيرها على تاريخ الأمة.

وقد أرفقت هذه الرسالة بملاحق متنوعة يتعلق بعضها بخطب زعماء الحركة الإصلاحية ورسائلهم ذات الصلة بالموضوع وتقارير عن حركة الإصلاح والجمعيات سواء في تونس أو

الجزائر إلى جانب بعض الجداول والبيانات المتعلقة بحركة العلماء، كما تم تطعيم الموضوع بعدد من الصور والخرائط التي لها علاقة وثيقة بموضوع البحث.

وأخيرا أرصدت المصادر والمراجع المعتمدة في الرسالة مع تخصيص فهارس للأعلام والأماكن وفهرس التنظيمات، ثم فهرس الدوريات وأخيرا فهرس الموضوعات.

والله ولي التوفيق وهو حسبنا

الفصل الأول: دور المؤسسات التعليمية في الحفاظ على الهوية المغاربية

أولا: الجزائر

حالة الثقافة والتعليم قبل الاحتلال في الجزائر

السياسة الاستعمارية في طمس الهوية الجزائرية

بداية النهضة في الجزائر والعوامل المؤثرة فيها

ثانيا: تونس

الوضع الثقافي في تونس قبل إصلاحات خير الدين باشا

بداية النهضة في تونس والعوامل المؤثرة فيها

خاتمة الفصل

دور المؤسسات التعليمية في الحفاظ على الهوية المغاربية

أولا: الجــزائر

حالة الثقافة والتعليم قبل الإحتلال

يشير الكثير من المصادر التاريخية ومنها المصادر الفرنسية التي أرخت للجزائر في تلك الفترة إلا أن الحياة الثقافية كانت منتعشة جدا وكانت الحركة العلمية والأدبية منبثة في جميع أرجاء البلاد، فكان يوجد الكثير من العلماء والفقهاء والأدباء ورجال الفكر الذين تجاوزت شهرة بعضهم حدود الجزائر إلى غيرها من الأقطار العربية والإسلامية.

فموريس بولار (Mourice poulard)[1] يذكر في كتابه "تعليم الأهالي في الجزائر" مثلا: "أنه كان في الجزائر في القرنين 14 و15 ميلاديين مراكز ثقافية باهرة وكان فيها أساتذة متمكنين في علوم الفلسفة والفقه والأدب والنحو والطب والفلك وكانت المدارس منتشرة في ربوع البلاد والتعليم ديني ومدني". والفرنسيون أنفسهم يؤكدون على هذه الحالة في مطلع القرن 19 مثل ما يقول أوجين كوموس[2] "كانت هناك أكثر من 2000 مدرسة للتعليم الإبتدائي والثانوي والعالي وكان يتولى التدريس فيها نخبة من الأساتذة الأكفاء، كما أن الطلاب كانوا من الشباب الناهض المتعطش للتعلم والمعرفة هذا فضلا عن مئات المساجد التي كانت تعنى بتلقين اللغة العربية لطلابها".

ومما هو معروف أن مدينة الجزائر وقسنطينة وتلمسان وبجاية ومازونة كانت مراكز للمعاهد العلمية والتربوية في الجزائر قبل الإحتلال.

وكان التعليم في الجزائر يمر بمرحلتين أساسيتين:

مرحلة التعليم الإبتدائي التي يتلقى فيها التلاميذ مبادئ العلوم مع التركيز على العلوم الشرعية ثم المرحلة العالية.

أما التعليم العالي فقد كان يتم بالمساجد والزوايا، حيث كان يوجد في الجزائر منها قبل الإحتلال قرابة ثلاث مائة وتسعة وأربعون زاوية، وهناك يدرس إلى جانب العلوم النقلية العلوم العقلية، ففي قسنطينة مثلا كان يوجد عام 1837 تسعة وسبعون كتّابا ومدرسة قرآنية يتردد عليها

---

[1] رابح تركي: الشيخ بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ط2، ش.و.ش.ت، الجزائر 1981، ص125.
[2] أحمد الخطيب: كتاب الثورة الجزائرية دراسة وتاريخ، ص34-35

ألف وثلاث مائة وخمسون تلميذا وتلميذة وكان يوجد في تلمسان في السنة نفسها خمسون كتَّابا في حين أن عدد سكانها لم يتجاوز 15000 نسمة فقط.[1]

ومن المدارس التي اشتهرت في ذلك الوقت مدرسة سيدي أيوب، سيدي الكتاني وسيدي الأخضر بقسنطينة، ومدرسة مازونة الذائعة في كل أرجاء القطر الجزائري ومدارس تلمسان وبجاية وغيرها من المدارس الأخرى.

والواقع أن المساجد كانت تقوم بدور تعليمي كبير إلى جانب أنها كانت مراكز للعبادة، ففي قسنطينة وحدها كان عدد المساجد 35 مسجدا وقد خصصت الجوامع الكبرى في الجزائر كجامعات بالمصطلح الحديث كالجامع الكبير بتلمسان وجامع سيدي العربي وزاوية عائلة الأمير عبد القادر بالقطينة (معسكر) وزاوية مليانة وزاوية سيدي عقبة ببسكرة وابن علي الشريف بمجانة.

السياسة الإستعمارية في طمس الهوية الوطنية

بعد الإحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830 تغير الوضع في الجزائر، فمنذ أن أصدرت فرنسا قرار وضع يدها على الأوقاف الإسلامية من قبل الجنرال "دي بورمون" عقب سقوط الجزائر العاصمة بدأ التعليم يعرف منعرجا خطيرا باعتبار أن الأوقاف كانت هي المصدر الأساس للحركة التعليمية والثقافية في الجزائر.

بعد ذلك قامت فرنسا بحملة واسعة النطاق من أجل إلحاق الأذى بالجزائريين وقد أدركت أن المعلم لا يكون منقادا وتابعا، لذا فقد لجأت إلى اتخاذ طريقتين أساسيتين لتجهيل الجزائريين وإبعادهم عن المعرفة، لعلها بذلك تكون متأثرة بالمقولة الشهيرة لإبن خلدون: "إن المغلوب مولع أبدا بالإقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده"[2].

كما شرعت في غلق الدور والكتاتيب الإسلامية وتشديد الرقابة على المساجد وتحويل بعضها إلى كنائس أو متاحف ومراقبة الأموال التي كانت تأتي عن طريق الأوقاف والتي صارت فيما بعد تحت تصرفها مباشرة، بعد أن أممت الأراضي والعقارات التابعة لها وتبين بوضوح أنها كانت تريد الوصول إلى تحقيق المستوطنة الفرنسية، أما الطريقة الثانية فكانت تسعى لنشر التعليم

---

[1] حميد بن سالم: (التعليم في الجزائر قبل الاحتلال)، مجلة اللسان العربي، العدد الأول، السنة الأولى، الرباط1964، ص36.

[2] ابن خلدون: المقدمة، تحقيق درويش الجودي، المكتبة العصرية بيروت 2002، ص137.

الفرنسي في صفوف الجزائريين، مع العلم أن هذا التعليم كان موجها لفئة معينة فقط وغالبا ما كان ينتهي بعد خمس أو ست سنوات فقط وكانت فرصة إتمام مراحل التعليم كلها لا تعطى إلا لفئة خاصة من أبناء الموالين لها.

والحق أن هذا التعليم كان يهدف إلى دمج وتجنيس الجزائريين ومما هو أكيد أن فرنسا لم تكن تهدف إلى تثقيف الجزائريين وتحسين مستواهم العلمي والحضاري، بل كان همها الأكبر هو صهرهم في البوتقة الفرنسية وفرض اللغة الفرنسية والإندماج والتجنس[1].

وقد سعى المحتل إلى جعل المدرسة وسيلة مثالية لتجريد الشعب الجزائري من شخصيته العربية الإسلامية تدريجيا، ولما كانت العقبة الكبرى التي تقف في وجهه هي اللغة العربية فقد حاربها بكل الأشكال وحاول الحط من قيمتها وإظهارها على أنها لغة ميتة وليست لغة حضارة وتقدم وفي هذا السياق يقول طه الحاجري "وهكذا يتضآل شأن اللغة العربية وتهون مكانتها ويسقط اعتبارها كعنصر من عناصر الشخصية الجزائرية يعتز به الجزائريون ويحرصون عليه فليست لذلك موضع اعتزاز بل سمة من سمات الضعة والهوان وعلامة على الإنتماء إلى الطبقات الكادحة التي لم يتح لها أن تتعلم في المدارس الفرنسية" [2]، وما كاد القرن التاسع عشر ينتهي حتى تمكنت فرنسا من فرض سيطرتها على كل جوانب الحياة في الجزائر الإقتصادية والسياسية والثقافية وقضت على كل المظاهر الصحية في المجتمع، وبدى وكأن فرنسا قد أفلحت فعلا في طمس الهوية الوطنية والقضاء على مقومات الأمة.

علما أنها قد صاحب محاولات التشويه والمسخ بمجموعة من القوانين والقرارات المتعسفة فإلى جانب قانون كريميو 1870 وقانون وارني عام 1873 صدر قانون الأهالي، حيث طبقت على الجزائريين حالة استثنائية دون غيرهم، وعوملوا معاملة وحشية وجردوا من جميع حقوقهم البشرية، وفي مطلع القرن العشرين أصدرت فرنسا الإستعمارية قانون جونار 1902-1908 وهي قوانين رادعة مجحفة وبموجب هذه القوانين منعت التجمعات العامة والحج إلى بيت الله الحرام وطبقت العقوبات الجماعية. ثم بدأت السلطات الفرنسية منذ 1906 تحضر قانون التجنيد الإجباري الذي صدر رسميا سنة 1912 مما جعل الكثير من الجزائريين يغادرون وطنهم زرافات ووحدانا

---

[1] رابح تركي: الشيخ بن باديس رائد الإصلاح، مرجع سابق، ص133.
[2] طه الحاجري: جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة: 1968، ص97.

بحثا على مواطن آمنة فتوجه بعضهم إلى تونس والمغرب وآخرون إلى مصر بينما توجه البعض الآخر إلى بلاد الشام والحجاز، وفضل بعضهم الإتجاه إلى فرنسا، والواقع أن حركة الهجرة لم تكن وليدة القرن العشرين وإنما تعود إلى الفترات الأولى من الإحتلال، فقد رفض الجزائريون التعايش مع المحتل في وقت كانوا يعتبرون أن الوطن العربي هو وطنهم.

والنتيجة هي أنه إذا نظرنا إلى الواقع الجزائري في تلك الفترة وجدنا البلاد أصيبت بجمود فكري وتخلف ثقافي، وفقد الناس الإتصال بماضيهم كنتيجة لفقدان الكتاتيب والمدارس التي كانت منتشرة في كل مكان. أما الفلاحون فقد تركوا مرتعا للخرافة والجهل والبدعة وقد كانت اللغة العربية أكثر المقاومات الوطنية معاناة.[1]

بداية النهضة في الجزائر والعوامل المؤثرة فيها:

مع مطلع القرن العشرين بدأت ومضات الإصلاح تلوح في الأفق من جديد وتبشر بطلائع نهضة وطنية ولعل العوامل الخارجية التي تمثلت في وصول التأثيرات المشرقية وعودة بعض المصلحين من الجامعات العربية العتيدة كجامعة الزيتونة التي كان لها الأثر المباشر في زعزعة الجمود الفكري وابتلاج عصرا جديدا يحمل إلى الجيل المتشوق إلى المستقبل بنظرات جديدة وأمل في النهضة واليقظة من السبات العميق.

العوامل المؤثرة في النهضة الجزائرية:

يجب أن نذكر هنا أن تأثيرات المشرق العربي كانت بارزة في بعث بوادر الإصلاح والتجديد في الجزائر، لاسيما الصحافة التي كانت الوسيلة الأكثر نفاذا وتأثيرا في أوساط المثقفين مع وجود نخبة مثقفة كانت متحمسة للوطنية والأصالة معادية للتغريب. كما أن هذه الثلة من الرواد المجددين كان لها برنامج وطني متكامل قوامه المساواة بين المواطنين ومعارضة التجنس وحرية التعليم وإلغاء القوانين المتعسفة التي فرضت على الجزائريين خلال القرن التاسع عشر، تلك القوانين التي كبلت الحريات العامة والخاصة، وجعلت من الجزائري مواطنا من الدرجة الثانية. وقد ساهم هؤلاء العلماء الإصلاحيون المجددون بمجهوداتهم الفردية في بعث اليقظة العربية الإسلامية الصحيحة منذ مطلع القرن العشرين عن طريق التدريس في المساجد وفتح المدارس والكتاتيب وتأليف الكتب والإشتغال بالصحافة، فحافظوا بذلك على اللغة العربية والثقافة

---

[1] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية،ج2، 1900-1930، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983، ص60.

الإسلامية من الإندثار وممن اشتهر من هؤلاء عبد القادر المجاوي، أبو القاسم حفناوي، عبد الحليم بن سماية وابن الموهوب ومصطفى بن خوجة وحمدان لونيسي وغيرهم.

وقد عرفت هذه الفئة المثقفة بكتلة المحافظين الذين اخذوا على عاتقهم مسؤولية التغيير في إطار الشخصية الجزائرية القديمة واعتبروا منذ البداية أن الأمة الجزائرية تمثل كيانا منفصلا تماما عن فرنسا وبدا واضحا تأثير الشرق في فكرة هذه الفئة.

فالشيخ عبد القادر المجاوي*: عبد القادر يصح أن يطلق عليه دائرة معارف لكثرة تحصيله وغزارة علمه وتنوع معارفه ومشاركته في كل فن من فنون التعليم فعلى يديه تخرج الكثير من المثقفين الجزائريين أمثال الشيخ لونيسي، الأستاذ الأول للشيخ بن باديس وإلى جانب اهتمامه بالتعليم فقد أولى عناية بالتأليف، حيث ألف 13 مؤلفا إلى جانب ذلك فقد كان من رجال الإصلاح الديني، فقاوم البدع و الضلالات توفي سنة 1913 بقسنطينة.[1].

من ابرز المصلحين كذلك أبو القاسم الحفناوي ** وكثير ما يعرف الحفناوي بكتابه "تعريف الخلف لرجال السلف" وكان الغرض من هذا كتاب هو تذكير الجزائريين بتأثر أسلافهم بالعلوم والآداب حتى يعودونهم بالإقبال على العلوم العربية الإسلامية والمحافظة على تراثهم القومي والثقافي، والاعتزاز به في وجه دعاة الفرنسية.

وبذلك يكون الحفناوي أحد قادة الإصلاح في الكتلة المحافظة وكان يتمتع بسمعة واحترام كبيرين بين الجزائريين فقد كان أستاذا للعربية والشريعة الإسلامية في المدرسة الجزائرية الفرنسية بالعاصمة وقسنطينة، وساهم بفعالية في النهضة الجزائرية من خلال محاضراته ونشاطه في الصحافة، وقد كانت أغلب مؤلفاته موجهة ضد الآفات الإجتماعية والخرافات والعادات القديمة التي كان يراها في الحقيقة مصائب وكان ينادي بالإصلاح الإجتماعي والتعليم واليقظة [2]، ونظرا

---

* عبد القادر المجاوي (1848-1914م)، مصلح سلفي، وعالم نحوي من كبار علماء تلمسان، درس بالمدرسة الكتانية بقسنطينة، ودرس بالمدرسة الثعالبية، تخرج على يده عدد كبير من العلماء والقضاة والأئمة والمدرسين والوعاظ، من أثاره، اللمع في إنكار البدع، إرشاد المعلمين في مبادئ العلوم.
(بوصفصاف وآخرون: معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة منتوري قسنطينة، دار الهدى عين مليلة الجزائر 2004) ج2،ص297.

[1] ا رابح تركي: ابن باديس رائد الإصلاح والتربية، المرجع السابق، ص107.

** أبو القاسم الحفناوي (1852-1942)ن ولد بقرية الديس ببوسعادة، تقلص منصب التدريس سنة 1897، ثم صار عضوا في هيئة تحرير "جريدة المبشر"، يعتبر من العلماء الجزائريين المتأثرين بالنهضة العربية في المشرق، كما اهتم باحياء التراث العربي القديم، اشتهر بتنوع معارفه الدينية والدنوية، كما كان باحثا محققا وأستاذا وإماما مفتيا، من أشهر كتبه "تعريف الخلف برجال السلف"، بوصفصاف وآخرون: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ج2،ص56.

[2] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، مرجع سابق، ج2، ص148.

لشخصيته المحترمة كعالم مثقف وزعيم ديني فإن نداءه بالإصلاح كان موضع ترحيب حتى من جماعة النخبة.

والحق أن المثقفين الجزائريين كانوا قد اطلعوا على حركة الإصلاح في تونس لاسيما من خلال كتاب أقوم المسالك لخير الدين التونسي، الذي أعتبر نموذجا في الإصلاح فقد نوه مصطفى ابن ابريهمات * بشخصية خير الدين واعتبر أن ما جاء به من أفكار في الإصلاح إنما هو طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية مع مراعاة حال الناس والعصر، وخلص إلى أن ما جاء به خير الدين في كتابه أقوم المسالك هو نصيحة توجه إلى المسلمين كافة، ولشدة إعجاب ابن ابرهمات بهذا الكتاب فقد بعث بقصيدة إلى خير الدين منها هذه الأبيات:

لله درك خير الدين من علم *** أبدى منار الهدى للناس في الفتن

نهجت نهجا قويما قل سالكه *** إلى السياسة كي ينجو من الفتن

ولأن الكتاب ذا قيمة علمية فقد أهدا خير الدين نسخة مكنه إلى الأمير عبد القادر، الذي أشاد بدوره بالكتاب وصاحبه، لاسيما أن الكتاب يدعو للأخذ بأسباب الحضارة دون أن يخالف قوانين الشريعة[1].

من المصلحين الذين اشتهروا في تلك الفترة عبد الحليم بن سماية**، فإلى جانب أنه كان من الدعاة للجامعة الإسلامية في الجزائر حتى أنه كان مضيف محمد عبده عندما زار الجزائر عام 1903، ونظرا لمكانته كأستاذ في مدرسة رسمية ولثقافته العالمية العربية والأوروبية فإن آرائه كانت في عمومها محترمة في المجتمع الجزائري بل حتى من بعض الفرنسيين الرسميين.[2]

ولعل أكثر من فاقت شهرتهم هو ابن الموهوب *** مفتي قسنطينة في تلك الفترة، فقد كان أستاذا في الفلسفة والعلوم الدينية والأدب العربي في المدارس الجزائرية الفرنسية بقسنطينة، وكانت

---

* ابن البريهمات: من ابرز الدرسين وممن لهم تلاميذ وأتباع، وهو من أعيان علماء الجزائر خلال منتصف القرن الماضي، كما أنه من العائلات الحضرية التي توارثت العلم والجاه، وقد تولى وظائف رسمية كإدارة المدرسة العربية – الفرنسية لمدينة الجزائر، كان من أنصار فكر خير الدين التونسي (أبو القاسم سعد الله: أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج4، دار الغرب الإسلامي، ط1، لبنان، ص166،)

[1] أبو القاسم سعد الله: أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر،ج4، مرجع سابق، ص،ص 166-169.

** عبد الحليم بن سماية: (1866-1933)، من عائلة تركية عريقة في الجزائر العاصمة، تنتمي إلى أتراك بلدة أزمير، ترجع في نسبها إلى حسن خوجة، نشأ نشأة دينية، تتلمذ على يد حسن بوشاشية، كما أخذ العلوم العربية والفقه والتوحيد على يد والده، وأخذ علوم الحساب والفرائض والفلك على يد أبي القاسم الحفناوي، من أثاره "حضارة الإسلام وفلسفته"، "الكنز المدفون والسر المكنون"، عرف عنه أنه رفض التجنيد الإجباري (بوصفصاف وآخرون: معجم أعلام الجزائر ،ج1 مرجع سابق، ص68).

[2] أبو القاسم سعد الله – مرجع سابق، ج2، ص149.

*** ابن الموهوب: (1866-1939م)، نشأ وتعلم بقسنطينة، تولى منصب الإفتاء بها مدة طويلة 1908-1933، كان أستاذا للفلسفة والعلوم الدينية والأدب العربي بالمدرسة الكتانية بقسنطينة، تولى التدريس في الجامع الكبير لمدة طويلة، كان من الذين يدعون إلى الإصلاح ومحاربة البدع والضلالات، والتخلص من التعصب والجهل، كما كان معجبا بالتقدم والعلوم الحديثة والفكر الأوروبي عموما، كان من العناصر الأساسية في كتلة المحافظين، وكان يؤمن بالتقدم والتعليم بكل الوسائل، ويرى ضرورة العودة إلى منابع الإسلام الصافية، فأعلن الحرب ضد الجمود والكسل لكي يحرر الجزائر من حالتها المنحطة، أشتهر بأنه كان أول من عارض ابن

محاضراته في نادي صالح باي تجلب إليها مستمعين كثيرين كما ساعد أصحابه بالتقدم والعلوم الحديثة والأفكار الأوروبية على تنوير الكثير من الجزائريين ولما كان على سعة واسعة من الثقافة فإنه أثر تأثيرا فعالا على معاصريه سواء كانوا محافظين أو مجددين.

وقد كان شعار ابن الموهوب في الإصلاح – أن الجزائر قد وصلت إلى أسفل نقطة في سلم التدهور ولكن لتتخلص من هذه الحالة يتوجب عليها أن تؤمن بالتقدم والتعلم والتسامح والعودة إلى منابع الإسلام الصافية.

ولهذا السبب أعلن ابن الموهوب الحرب ضد الجهل والإجحاف والكسل فهو يرى أن كل الآفات التي كانت مسلطة على الجزائريين لا تنته إلا بخلق المدارس، المدارس ثم المدارس...[1].

إن فلسفة الموهوب الإصلاحية كانت محاولة انتشال الجزائريين من هذا الظلام، ذلك أن أحوال الجزائر السياسية والإجتماعية والعقلية كانت في غاية السوء، فقد كانوا مجردين من الحقوق السياسية ومن المساواة الإجتماعية والإقتصادية مع الكولون وقد كانت الأمية بينهم تشكل معدلا مرتفعا يضاف إلى ذلك تراث من الخرافات واللامبالاة، زيادة على ذلك فقد كانت الجزائر تعيش تحت قوانين اضطهادية متعسفة.

وقد كانت المحاضرات التي يلقيها على مستمعيه في نادي صالح باي مدوية إذ كان يريد أن يحقق بذلك طفرة في المجتمع الجزائري.

فها هو يصف الوضع بقوله "إن الجزائر كانت عضو في الجسم الفرنسي وان هذا العضو كان مريضا ولذلك فعلى الجزائريين أن يعالجوه، ولا يجب فصل العضو المريض ولكن لا يجب أن يحدث إلا عندما يصبح الوضع ميئوسا منه ثم تساءل هل نحن الآن في حالة بائسة من انتشال الجزائريين من نومهم الطويل".

وقد كان ابن الموهوب يدعو إلى الوحدة والتضامن والتقدم واستنكر على القدرية باعتبارها ضد الإسلام والعقل الإنساني كما بين أن الطريق الصحيح إنما يكمن في العمل من أجل الإسلام الحقيقي الذي يحتوي أشياء جميلة، أخلاقية عظيمة وقد اعتبر بأن الحضارة لم تكن أبدا هي الزنا والكحول والأفعال الرديئة، إنما برنامج للعناية الصحية والعمل والعلوم والتسامح والتقدم.

باديس في إلقاء دروسه في الجامع الكبير، وإن كان من واضع بذرة الإصلاح الأولى في الجزائر، (بوصفصاف وآخرون: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ج1، ص134-136).

[1] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، المرجع السابق، ص151 – عن ابن حبيلس، ص2.

وعلى الجزائريين أن يفهموا القرآن الكريم والحديث الشريف اللذان قادا أجدادهم إلى المجد وكان شعاره في محاضرته وتعاليمه "تحابوا وتوادوا واعتصموا جميعا في هذه الجزائر الجميلة بحبل السلام والإنسجام المقدس".[1]

والخلاصة أن ابن الموهوب هو مصلح ديني واجتماعي مجدد اعتبر ظاهرة في تلك الفترة، فقد استمرت أفكاره في الإنتشار في المجتمع الجزائري وخلال أقل من عقد أصبح مذهب ابن الموهوب في الإصلاح مطبقا معمقا، وكان فعلا المقدمة بالنسبة لحركة ابن باديس الإصلاحية التي جاءت في العشرية الثانية من القرن العشرين، لا سيما وأن الشيخين كانا من مدينة واحدة.

وهكذا فإن ابن الموهوب كان نشاطه مركزا على إثارة الوطنية لدى الجزائريين من جهة ومن جهة أخرى كان يدعو إلى الإصلاح الإسلامي بتبنيه طريقة السلف في التغيير.

ولعله من الواضح أن ابن الموهوب الذي كان يحسب من المحافظين قد تأثر بالحركة الإصلاحية في تونس سواء التي تزعمها خير الدين أو البشير صفر، والذي يوصف بأبي النهضة التونسية الثاني بعد خير الدين حيث احتوى كتابه مفتاح التاريخ أهمية كبرى في شرح أسباب تقدم الأمم وعوامل تأخرها وسعيه إلى مقارنة الوقائع والأحداث في التاريخين العربي والأوروبي بقصد استخلاص العبرة[2].

والحق أن تأثير بشير صفر كان واضحا على الحركة الإصلاحية سواء المحافظة أو المجددة، لسعة إطلاعه وأفكاره التنويرية التي نادى بها، فقد اعتبر أن التخلف ليس من شيم المسلمين الذين كانوا في مقدمة الركب.

والحق أن هذه خطوة التي خطاها المحافظون برئاسة ابن الموهوب كانت بداية واضحة على المنهج الإصلاحي التجديدي الحديث، جعلت كثير من الفرنسيين يخشون ثورة الجزائريين، مثلما ذكر "ميللي" : "إن الجمعيات الدينية مع اتجاهها الإصلاحي الإسلامي ضامة الجزائر بالآلاف في كل مكان قد قد تغتم فرصة ضعف فرنسا "مثلا دخولها في حرب أوروبية" لكي ترمي الرومي في البحر".[3]

فقد كان الفرنسيون يخشون المحافظين بجمعياتهم الدينية وعلماءهم ونوابهم وأسرهم الكبيرة.

---

[1] أبو القاسم سعد الله :الحركة الوطنية ، ج2، مرجع سابق، نقلا عن النص الفرنسي ابن حبيلس ص154، 155.
[2] علي الشابي: "أي تأثير لتونس في شخصية المصلح الجزائري الكبير الإمام عبد الحميد بن باديس؟" مجلة الهداية، العدد 154، أفريل 2003، ص56.
[3] أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص158.

دور الصحافة في بعث اليقظة القومية الجزائرية:

عرفت الجزائر خلال القرن التاسع عشر في ظل الإحتلال الفرنسي جمودا رهيبا، فتقلصت الثقافة العربية الإسلامية وخيم الجهل والبؤس، وصارت الجزائر بعيدة عن الحياة الفكرية والحضارية، وخفتت المعارف والعلوم من البلاد، في نفس الوقت سيطرت الطرقية المنحرفة على عقول العامة وكادت الاتصالات الثقافية و الحضارية أن تنقطع بين الجزائر والعالم العربي والإسلامي، وكانت البلاد في عزلة مظلمة فرضتها سلطات الاحتلال وفي ظل غلق نوافذ العلم والعالم أمام الجزائريين دب اليأس في النفوس واستسلم الناس للقضاء والقدر غير أن النزعة الاستقلالية ظلت حية في النفوس وظل الأمل قائم للخلاص من هذه المحنة [1] ففي مجال الصحافة افتتح طريق الاتصال بين الجزائر وبين العالم العربي والإسلامي فكانت الجرائد والمجلات العربية تتسرب إلى الجزائر من مصر خاصة وغيرها من البلاد العربية لاسيما من تونس التي كانت تتمتع بهامش من الحرية وكذا عن طريق أوروبا "كما كانت هذه الجرائد تصل إلى الجزائر عن طريق الحجاج" كما يذكر ذلك شارل اندري جوليان[2].

ومن أهم الجرائد والمجلات التي كانت تصل إلى الجزائر وكان لها قراء كثيرون "مجلة العروة الوثقى" التي أسسها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وكانت تستهدف نهضة العرب والمسلمين–وقد كان لهذه المجلة "دور هام في حركة البعث العربي الإسلامي العام في العصر الحديث"[3] فايقضت الضمير الوطني في النفوس وعملت على توطيد الصلة بين المسلمين وفتحت عيون العرب على الخطر المشترك وهو الاستعمار الذي اكتسح العالم العربي و حوله إلى شرايين تغذي العالم الغربي بالمواد الخام والمنتوجات الزراعية.[4]

والى جانب "العروة الوثقى" مجلة "المنار" لصاحبها رشيد رضا المصلح وكان هدف هذه المجلة هو نشر الإصلاحات الاجتماعية و الدينية والاقتصادية وقد كان لها قراء دائمون في

---

[1] عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية، 1931-1945، دار البعث قسنطينة-الجزائر: 1981ص62.

[2] شارل اندري جوليان: إفريقيا الشمالية تسير، تعريب وجمع مجوعة من الأساتذة، ترجمة المنجي سليم وآخرين، الدار التونسية للنشر، تونس 1976، ص24.

[3]- رابح تركي : الشيخ بن باديس، مرجع سابق، ص99.

[4]- المرجع نفسه، ص100.

الجزائر وهي التي كانت تنشر أفكار محمد عبده في الإصلاح الديني بين جماعة المثقفين الجزائريين وانتعش الإسلام في المغرب العربي.[1]

إلى جانب ذلك كانت جريدة المؤيد التي كان يصدرها الشيخ علي يوسف في القاهرة وكانت دعوتها مركزة أساسا حول اليقظة والإصلاح وتصحيح الأوضاع الداخلية في البلاد العربية ومقاومة المحتل وتبيان الاستبداد السياسي والانحطاط الاجتماعي وكانت تعمل على تشويق النفوس إلى الحرية والاستقلال.[2]

والحق أن الصحف التونسية كانت أكثر حرية في إثارة القضايا الحساسة التي تهم المجتمع، والمعروف أن أقلاما جزائرية عديدة كانت تساهم في كتابة المقالات التي تطرح مثل هذه المواضيع، ومن أحسن الأمثلة على ذلك توفيق المدني وغيره كثير.

بذلك تكون الصحافة العربية الشرقية قد ساهمت في زعزعت الجمود الفكري وساهمت في إنقاض الضمير العربي الإسلامي في الجزائر فكانت النتيجة المباشرة أن باشر الجزائريون في إنشاء صحافة على منوالها سواء أكانت عربية أو فرنسية لكنها وطنية، فبحلول القرن العشرين وقبل اندلاع الحرب العالمية الأولى 1914 بدأت الصحافة الوطنية في الجزائر تجلب سيلا من القراء، صحيح أنها كانت غير جريئة وثائرة وأحيانا جامدة إلا أنها كانت تعبر عن الظرف الذي نشأت فيه وفي هذا يقول د.بوصفصاف "رغم أن الصحافة العربية في الجزائر إبان ذلك العهد كانت تتميز بالاعتدال وبالفتور في الحماس الثوري نظرا للإجراءات الإدارية الخاصة بالجزائريين والرقابة الصارمة على كل الموضوعات الوطنية، ولذلك تعرضت إلى انتقادات شديدة من طرف الصحف العربية المشرقية التي اتهمتها بالاعتدال والبرودة ذلك أنها كانت تجهل سياسة الإرهاب وعمليات الاضطهاد التي تمارسها سلطات الاحتلال ضد الوطنيين الجزائريين".[3]

مهما يكن من أمر فان أهم الصحف الوطنية التي عرفتها الجزائر في تلك الفترة "جريدة الجزائر 1908"لعمر راسم" التي أوقفت بعد أن صدر منها عددين فقط.[4]

---

[1]- عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين، مرجع سابق، ص64.

[2]- المرجع نفسه، المكان نفسه، ص64.

[3]- المرجع نفسه ص67.

[4]- أحمد توفيق المدني: حياة كفاح (مذكرات)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1975، ج2 ص344..

وكانت هذه الجريدة تسعى لتوعية الجزائريين وتثقيفهم واطلاعهم على ما يجري في الخارج، ومن بين الجرائد التي كان لها تأثير في الأوساط الجزائرية صحيفة المغرب التي صدرت عام 1903 وتوقفت قبل الحرب العالمية الأولى وهي ذات اتجاه قومي وكانت تصدر بالعربية.[1]

هناك جريدة الفاروق التي كانت نموذجا لمحاربة البدع والخرافات والتي كان شعارها:

قلمي ولساني ثلاثة بفؤادي *** ديني ووجداني وحب بلادي [2]

وهذه الجريدة لعمر بن قدور [*] الذي يعتبر من أتباع مدرسة الإصلاح الإسلامي متأثرة بالشيخ محمد عبده ورشيد رضا من خلال مجلة المنار، فسعى أن يقلدهم في مكافحة البدع والخرافات.

ومن المجلات التي عرفت في الساحة في تلك الفترة وكانت متأثرة بأفكار محمد عبده وجمال الدين الأفغاني مجلة "ذو الفقار" والتي كان شعارها "جريدة عمومية اشتراكية إنتقادية" وهي لعمر راسم[**] متخفيا تحت اسم (ابن المنصور الصنهاجي) [3] وقد كان التأثير واضحا حيث أن صاحبها جعل صورة محمد عبده على غلاف المجلة.

وفي افتتاحية العدد الأول جاء في المجلة ذو الفقار جريدة عبدهية إصلاحية وأنها لا تخرج عن الطريقة التي خطها لها رجال الإصلاح المخلصين، ومما اتخذته مبدءا لها بعدها عن السياسة لأنها مهما دخلت شيء إلا أفسدته [4] وفي الجزائر تحدث محمد عبده عن الإصلاح الإسلامي والنهضة في الشرق الأدنى وتضامن المسلمين وقد تركت الزيارة في بعض الجزائريين ولاسيما العناصر المحافظة انطباعا استمر وقتا طويلا.[5]

---

[1] - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص 56-57.

[2] محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر:1980 ص37.

[*] 1886-1932م، صحفي وكاتب وشاعر، من رواد الصحافة العربية الوطنية في الجزائر، ولد بمدينة الجزائر وبها نشأ وتعلم، أنشأ جريدة الفاروق، سنة 1913، عرف باتجاهه السلفي الإصلاحي، اهتم بالقضايا التي تهم المسلمين في العالمين العربي والإسلامي، كان ينشر مقالاته في صحف مصر والآستانة وفي تونس (الحاضرة التونسية) (بوصفصاف وآخرون، معجم أعلام الجزائر،ج1، ص119).

[**] (1883-1959)، صحافي وخطاط جزائري أشتهر بالخط العربي الجميل وبمقدرته في رسم المنمنمات، يعتبر من الرعيل الأول في الإصلاح والكفاح، عرف منذ صباه بالأفكار الإصلاحية، كان من أوائل الجزائريين المعتنقين لمذهب الأستاذ محمد عبده أنشأ جريدة "الجزائر" سنة 1908، ثم جريدة ذو الفقار سنة 1913، من آثاره تفسير القرآن الكريم، تراجم علماء الجزائر (المرجع نفسه، ص126).

[3] رابح تركي: الشيخ بن باديس رائد الإصلاح، مرجع سابق ص112.

[4] محمد ناصر: المرجع نفسه، ص42.

[5] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، مرجع سابق، ص115.

من العوامل التي كان لها تأثير على النهضة الجزائرية الحديثة فكرة الجامعة الإسلامية والشعور بذلك الزخم من الصراع بين الشرق والغرب، فقد كان عبد الحميد الثاني محبوبا في الجزائر ومنتظرا من الجزائريين كرجل الساعة.

فالدكتور أبو القاسم سعد الله يرى أن إسهامات الجامعة الإسلامية في النهضة وحركة التجديد في مطلع القرن العشرين قامت أساسا على أنها قدمت لها أفكارا وتصورات جديدة من خلال الكتب والصحافة كما شجعت الجزائريين على الهجرة نحو الشرق الأدنى وهناك تم التعريف بالقضية الجزائرية من خلال مهاجمتها للحكم الفرنسي وتشجيع الجزائريين على رفض التجنس، كما أنها ضغطت على فرنسا لإدخال إصلاحات جديدة وساعدت على نقل المشكل الجزائري إلى مجال أوسع بدل خنقه خلف الستار الفرنسي.[1]

وحتى وإن لم يكن للجامعة ذلك الدور المنتظر منها فإنها ساهمت ولو من بعيد بإثراء عوامل النهضة والإنبعاث الذي حدث في الجزائر في تلك الفترة كما أن الشرق الأدنى كان ملجأ لكثير من الجزائريين الذين اضطروا للفرار والهجرة حتى وإن كانت هذه الهجرة بالأجساد فإن أرواحهم ظلت مرتبطة بالوطن وهي تتطلع إلى غد أفضل.

تعد بداية القرن العشرين مرحلة بعث وتجديد للحياة الثقافية في الجزائر ففي هاته المرحلة ظهرت عدة مراكز ثقافية وأدبية كان لها أثر واضح على النهضة وحركة البعث، فبالإضافة إلى الصحافة سواء الوافدة أو المحلية فقد نشأت عدة نوادي وجمعيات ثقافية بين سنوات 1890 و1914، فكانت هذه المراكز تؤدي وظيفة المدرسة كما كانت خلوة للأحاديث وملتقى اجتماع ورياضي وصحي، ومرتعا للكشافة ومقرا للنشاط السياسي، ومن أهم هذه الجمعيات والنوادي الجمعية التوفيقية، ودادية العلوم الجديدة، نادي التقدم، نادي شباب الجزائر، جمعية الهلال، ونادي الإتحاد، وجمعية الراشدية وغيرها من النوادي والمؤسسات.[2]

ومن بين المنظمات الثقافية التي ساهمت في النهضة الجزائرية الجمعية التوفيقية التي أنشئت عام 1908 ثم أعادت النخبة بعثها عام 1911 وكان أعضاؤها يزيدون عن مائتي عضوا، أما من أهدافها هو جمع أولائك الجزائريين الذين يرغبون في تثقيف أنفسهم وتطوير أفكارهم

[1] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الحركة الوطنية، ج2، مرجع سابق، ص119.
[2] المرجع نفسه، ص137.

العلمية والإجتماعية[1]. ومن خلال الموضوعات التي كان يلقيها المحاضرون في الجمعية مثل: الحضارة العربية، الأدب العربي، القانون الإسلامي العام، وهذه الموضوعات تؤكد فعلا أهداف ونوايا هذه الجمعية.

من بين الجمعيات التي ذاع صيتها نادي صالح باي في قسنطينة حيث ضم هذا النادي عام 1908 ألفا وسبع مائة عضو وكان له فروع كثيرة في مدن الجزائر، أما أهدافه فكانت نشر التعليم والمساعدة على تحرير الجماهير الجزائرية، ومحاولة التوفيق بين المجموعتين الفرنسية والجزائرية وقد كانت أغلب المحاضرات التي تلقى في النادي ذات صبغة علمية أدبية وجمعيات خيرية كما كان النادي يدعو إلى العمل ويحث على الأخوة والتعاون[2].

ونفس الدور كانت تقوم به جمعية الراشدية سنة 1907 ويبدوا واضحا من خلال عناوين المحاضرات التي كانت تلقى في الجمعية أنها كانت تعالج القضايا التي تطرح في الواقع الجزائري منها مثلا التضامن والأخوة بين المسلمين، الإسلام واللغات الأجنبية، التوفيق بين الإسلام والتقدم الحضارة العربية، قبل وبعد الإسلام.

والحقيقة أن كل من نادي صالح باي والجمعية التوفيقية والراشدية قد ساهمت مساهمة فعالة خلال تلك المرحلة بإيجاد بيئة خصبة ترعرع فيها الفكر الصحيح من أجل التغيير، وهذا على غرار ما حصل في تونس في نفس الفترة، حيث ظهرت مدرسة الصادقية 1876، والمدرسة الخلدونية 1896، والدور الكبير الذي لعبته المدرستان في بعث النهضة العربية الإسلامية في تونس والجزائر خاصة.

وعموما فقد ساهمت هذه العوامل في ميلاد مجموعة من الرواد اللذين سخروا مجهودات جبارة لدفع اليقظة إلى الأمام من خلال إحياء الثقافة العربية الإسلامية عن طريق التدريس في المساجد والمدارس وتأليف الكتب باللغة العربية، وإذا كانت هذه الكتلة (المحافظين) قد طالبت بضرورة التمسك بأصول الدين ومعارضة الأفكار الغربية والتجنس والتجنيد الإجباري، فقد كانت فئة أخرى من المثقفين ثقافة غربية قد ظلوا يطرحون بعض المسائل كالمساواة والديمقراطية ورفض قانون الأهالي.

---

[1] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص139.
[2] المرجع نفسه، المكان نفسه، عن ابن حبيلس.

والحق أن هذه الفترة (أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين) هي التي شهدت بداية إرساء قواعد النهضة، لعلها لم تكن شاملة أو ناضجة لكنها كانت الخطوات الأولى نحو بعث حضاري ونهضة جادة بدأت تتبلور وترتسم بشكل جلي في أواخر الربع الأول من القرن العشرين بزعامة المصلحين المجددين وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس وكوكبة من العلماء الذين اعتنقوا وآمنوا بهذه الأفكار فحملوا المشعل بكل ثبات من أجل محاربة الجمود والتخلف وبناء الصرح الحضاري.

ثانيــا: تونــس

الواقع الثقافي في تونس قبل إصلاحات خيرالدين باشا

إن الحديث عن الواقع الثقافي في تونس لن يتأتى إلا بالإحاطة بما كان يجري في الجامع الأعظم، باعتباره المعلم الذي انتهى إليه جميع المعلمين والمثقفين في تونس عبر فترة طويلة من الزمن.

ولا شك أن هذا الجامع الذي عد نبراسا لتونس والدول المجاورة لها قد مر بفترات مجد وفترات تراخي، وقد ظلت تونس تعتز بكونها قصبة من قصبات العروبة والإسلام لأنها تحتضن هذا الجامع العريق وهو من أقدم الجامعات الإسلامية في العالم العربي وهي الجامعة التي أخرجت عددا من الرجال يعتزون بعروبتهم وإسلامهم[1].

التعريف بجامع الزيتونة:

يعتبر جامع الزيتونة من أقدم الجوامع التي بنيت في الشمال الإفريقي والمغرب العربي وباعتبار أن أول عمل كان يقوم به الفاتحون أثناء فتحهم لأقليم جديد هو بناء المسجد ليكون أساسا لحكمهم وملكهم ودينهم ويعتقد أن عبد الله بن الحبحاب هو الذي أخط هذا الجامع لما كان واليا على إفريقيا[2] ويؤيد هذه الفكرة ما ذهب إليه ابن الأثير في كتابه الكامل حيث يقول: "إن عبد الله بن الحبحاب دخل إفريقية في هذه السنة"(735م)[3].

وإن كان يرى آخرون أن المسجد كان قد بني من قبل أي في عهد حسان بن النعمان على اعتبار أن السنة الأولى التي يقوم بها الفاتحون هي بناء المسجد الذي تنتظم فيه حياة الناس السياسية والاجتماعية والدينية.

وقد عرف الجامع باسم الزيتونة استنادا إلى الآية الكريمة: (الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية)[4] يذكر هذا إحسان حقي إذ يقول أن المسلمين اختاروا الاسم

---

[1] جلال يحي: تاريخ المغرب العربي الكبير،ج4 (الفترة المعاصرة)، دار النهضة العربية بيروت:1981، ص 227،226.

[2] ابن خلدونّ: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، مجلد 5، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت: 1968، ص404.

[3] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد5، دار الكتاب العربي، بيروت: 1965، ص185.

[4] سورة النور: الأية5.

ليجعلوا من زيتونتهم زيتا يضيء الشمال الإفريقي بنور الإيمان، وهناك من يرى أن المسجد سمي بهذا الإسم لأنه بني بالقرب من شجرة زيتون، ويبدو أن هذا هو الرأي الأصوب[1].

يقع جامع الزيتونة في قلب مدينة تونس القديمة عرف في بعض الفترات عدة ترميمات وإضافات خاصة في عهد الأغالبة سنة 863 للميلاد. وقد عرفت الزيتونة منذ القرن السادس عشر وحتى مطلع القرن العشرين تحولا ليس في هياكلها وفي بناءاتها وإنما في مناهجها وطرق التدريس فيها استجابة للظروف ومطالب الحياة

ولقد ظلت الزيتونة على مر العصور مؤسسة دينية ثقافية لها هيبتها ترتبط بتاريخ تونس ومن هذا الجامع تخرج جموع من العلماء كآل نيفر وآل عاشور وآل بيرم ومن الزيتونة تخرج متخصصون في الإفتاء والفقه والتفسير والسير والأصول والآداب[2].

والحقيقة أنه من الزيتونة بدأت أولى بوادر الإصلاح الديني والاجتماعي كما أنها تصدت للحماية في بعض المواقف التي كانت تعارض الدين ولا تتماشى وتقاليد الأمة التونسية

[1] Mouhamed Abd ElMoula: L'université Zaitounienne et la société Tunisienne, thèse de Doctorat de 3ème cycle en sociologie, Tunis 1991, p30.

[2] محمد لخضر حسين: تونس وجامع الزيتونة، جمع وتحقيق علي الرضا، تونس: 1971، ص26.

الوضع التعليمي في الزيتونة قبل الإصلاحات:

تعرض جامع الزيتونة لفترة من الجمود والانحطاط طيلة القرن 19 فسدت أبواب الاجتهاد وصار التقليد هو الأصل، فإذا تظاهر أحدهم بأفكار ينسبها لذاته يعارض بها أقوال العلماء السابقين، ومجرد توهم هذا المقدار على الشخص يفضي إلى الإنكار عليه ورمي عقيدته بتهم الزيف والاعتزال بالرأي[1].

ونتيجة لهذا الجمود الذي وصل إليه جامع الزيتونة فإن حركة الإجتهاد قد توقفت وآلت العلوم الشرعية إلى تقوقع في التقليد الأعمى للسلف دون اجتهاد وفي هذا يقول الطاهر الحداد [2]: "فكان ذلك طريق إلى الموت الذي أصاب روح هذا المعهد في الصميم" ولم تكن الوسائل التربوية والمناهج المتبعة في أحسن حال فقد كان التركيز على الحفظ والذاكرة عنوانا للنجابة والتفوق لاسيما إذا كان الطالب يحفظ الكتب المشهورة لمختصر خليل في الفقه وألفية مالك في النحو والنتيجة أن الزيتونة ساهمت في تخريج طلبة ضعاف وأقل مستوى.

وعموما فإن الوضعية في الزيتونة قبل إصلاحات خير الدين باشا اتسمت بفوضى في التسيير الإداري للجامع وعدم وجود تنظيم متفق عليه في الامتحانات وحرية تصرف الأساتذة في وضع المناهج وتقرير الكتب.

وفي هذا يؤكد طاهر الحداد[3] "أن هناك بعض المواد مكررة تقريبا في الدرجة الواحدة كابن عاشر وابن تركي في السنة الأولى والتاودي وخليل في الرابعة والخامسة".

ويبدو هنا جليا أن المناهج والكتب المدرسة أصبحت لا تتلائم والوضع الجديد ففي الغالب أن المسائل تتكرر في الكتاب والكتابين وأهم أبحاث هذه الكتب شروح وتأويلات لمقاصد مؤلفيها بالإضافة إلى الغموض والإبهام الذي يكتنفها.

يضاف إلى ذلك أن العلماء كانوا يشتغلون بمناصب إدارية وسياسية بعضها من مستوى عال كما كان الحال بالنسبة لابن أبي الضياف ومحمد قبادو المفتي بالمجلس الشرعي وغيره[4].

---

[1] الطاهر الحداد: التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة، تقديم وتحقيق أنور بوسنينة، الدار التونسية للنشر، تونس: 1981، ص62.

[2] المصدر نفسه ص42.

[3] المصدر نفسه ص32.

[4] محمد فلاح العلوي: "التعليم في الزيتونة والقراويين بين التقليد والتجديد أواخر القرن 19 وبداية القرن العشرين"، الزيتونة الدين والمجتمع والحركات الوطنية في المغرب العربي، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، العدد 11 ، تونس: ماي 2002، ص 28.

ونظرا لهذه الوضعية ساءت أحوال الجامع كما ساءت أحوال التدريس، ففترت همة المتعلمين وقلت رغبة الدارسين وانعكس ذلك على سير الأمور داخل الجامع.

وعموما فإن هذه الفترة اتسمت بركود وجمود في الحركة التعليمية فأهمل التدريس وكسدت صناعته مما نتج عنه انقراض علوم شتى كانت تدرس كالطب والرياضيات والفلسفة مما اشتهر به المعهد في عصور المجد.

وقد غلب فكر التواكل والتقليد وتقديس السلف وسد باب الاجتهاد ومنع تدريس بعض التخصصات التي تفيد في معرفة واقع الحال.[1]

وقد أفرزت هذه الوضعية في الأخير تيارين متنافرين في مواجهة المستجدات المختلفة وهم فئة العلماء المقلدين وفئة المجددين فأما المقلدون فإنهم يعتبرون أن ما تركه السلف هو الكمال والمثال في كل ما تركوه سواء في العلم أو المعتقد أو كتب التدريس وطريقته في المباحث مع الاعتقاد في بعض الخرافات والأوهام والوقوف على حد سطحي من التفكير مما يبتغى.[2]

وقد أبدت هذه الفئة التقليد الأعمى فحرموا رائحة التفكير المستقل في عامة العلوم وأغروا تلاميذهم على مقاطعة كل من يتظاهر بشيء من الرأي المخالف للمألوف في المعهد، وكل من يخالف ذلك يطعن في عقيدته ويبعد عن الجامع كما حصل مع محمد النخلي.[3]

ويبدوا أن هذا الوضع الذي آلت إليه حالة الجامع في تونس لم تكن حالة استثنائية وإنما كانت حالة عامة، مرت بها أغلب بلدان العالم العربي والإسلامي لأسباب عديدة، في وقت خطت أوروبا خطوات عملاقة نحو التقدم والرقي.

أما الفئة الثانية وهم المجددون فقد انتبهوا إلى مساوئ جمهور العلماء في المعهد سواء من حيث التدريس أو التصوف، وفي نظر هؤلاء أن الصحيح هو أن يكون العالم قوي الفكر، شديد العارضة، ثاقب النظر في شؤون العامة، فلا يحصر العلم في الدين فقط، بل تعتبر كل علوم الكون ضرورية للمعرفة.

---

[1] محمد فلاح العلوي: "التعليم في الزيتونة والقرويين بين التقليد والتجديد"، الزيتونة: الدين والمجتمع مرجع سابق، ص19.
[2] عبد الله القباح: "حال العلماء اليوم" – جريدة السعادة 1915/04/13 المغرب.
[3] الطاهر الحداد: تاريخ التعليم الإسلامي، مصدر سابق، ص63.

وقد نادت هذه الفئة بضرورة إصلاح التعليم في الزيتونة ودافعت عن فكرة إدراج المواد العلمية في برامجه التدريسية كالرياضيات وغيرها.[1]

وقد تعرضت هذه الفئة لمقاومة عنيفة من طرف المحافظين المناهضين لكل تغيير، ولحق الأذى بأسماء عديدة من رموز الزيتونة منهم الشيخ سالم بوحاجب والبشير صفر وعبد العزيز الثعالبي وغيرهم، ومن هذه الفئة سينبثق توجه الحركة السلفية التي جاءت بهدم الكثير من تقاليد وأفكار علماء التقليد، فدخلت معهم في صراع مرير لونته السياسة بألوان مختلفة.[2]

والحق أن كل دعوة تجديدية إلا وكانت تلقى معارضة شديدة من قبل المقلدين، ولعل أول من أصطدم بهذا اللون هي الحركة الوهابية بزعامة محمد بن عبد الوهاب والتي كانت دعوتها ثورة على البدعة والعقائد الفاسدة ثم حركة جمال الدين الأفغاني التي اصطدمت بواقع مرير تطلب وقتا طويلا لتطويعه.

<u>بداية النهضة والعوامل المؤثرة فيها خلال القرن التاسع عشر (19)</u>

لقد تأثر جامع الزيتونة سلبا وإيجابا بكل التطورات التي شهدتها البلاد بسبب ما آل إليه التدخل الأجنبي من تحكم في شؤون الشعب الذي تجاذبته رياح التقليد والتجديد بسبب انقسام العلماء على أنفسهم في مواجهة الوضع المتردي الذي آل إليه والتخلف الحاصل في الحركة الثقافية والفكرية.[3]

والحق أن فكرة الإصلاح لم تغب عن أذهان المسلمين ذلك أن القرآن الكريم أكد فكرة الإصلاح بينهم من خلال الكثير من الآيات القرآنية التي اتخذها المصلحون شعارا لحركاتهم وصحفهم قال الله تعالى: "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب".[4]

من هنا شكلت مسألة الزيتونة عنصرا أساسيا من عناصر قضية الإصلاح العامة التي شغلت السلطات التونسية وسلطة الحماية بالإضافة إلى دور النخبة.

---

[1] محمد فلاح العلوي: "التعليم في الزيتونة والقراويين"، الزيتونة <u>الدين والمجتمع</u>، ص30.
[2] المرجع نفسه، ص31.
[3] المرجع نفسه، ص 17-18.
[4] سورة هود الآية88 شعار جريدة تونسية.

وقد كانت محاولات الإصلاح التعليمي في تونس قبل فرض الحماية بحوالي أربعين (40) سنة، إذ أن أولاها كانت عام 1842[*] وأما ثاني الإصلاحات فكانت عام 1862[**] ثم تلتها إصلاحات 1870[***]، لكن معظم هذه الإصلاحات كانت ناقصة، إذ ظل التعليم يتماشى والطرق التقليدية التي لم تستجب لطرق التغيير ولم تستجب للحداثة.[1]

وقد استندت تلك الإصلاحات إلى مرجعية فكرية للعديد من أقطاب الفئة المجددة من العلماء لكن الفكرة لم تلق النجاح المتوقع بسبب أن المناخ لم يكن مهيأ كما ينبغي عكس ما حصل في الربع الأخير من القرن حيث بدأت هذه الإصلاحات تجد متنفسا وقبولا لدى الرأي العام[2].

وقد تضافرت عدة عوامل ساهمت في بعث حركة الإصلاح منها ما هو محلي ومنها ما هو خارجي.

فقد أسهمت هذه العوامل في بداية نهضة شاملة في تونس مست إصلاح التعليم والمناهج وطرق التدريس والكتب المخصصة للدراسة.

نتبين أن التغيير لم يكن فجأة وإنما تم عبر مراحل وكأن هذه الإصلاحات شكلت فقط أرضية صلبة لانطلاق إصلاحات حقيقية وجادة فيما بعد، وكما أن تلك الفترة لم تكن عقيمة المردود في تونس فقط بل في كثير من الأقطار العربية، إذن ما هي العوامل التي أدت إلى هذا التغيير الحقيقي؟

1 – إصلاحات محمود قبادو خير الدين باشا

إن حركة التجديد الفعلية التي ظهرت في نهاية القرن 19 وبداية القرن 20 إنما تعود في أساسها إلى تلك النهضة الإصلاحية التي عرفتها تونس في عهد محمود قبادو وخير الدين باشا.

فكل التغيرات التي جاءت فيما بعد إنما بنيت على تلك الإصلاحات، فمحمود قبادو رأى أن الإنحطاط الذي آل اليه المسلمون يعود إلى أنهم تركوا علومهم، وللخروج من هذه الوضعية يتوجب عليهم اقتباس العلوم الأوروبية.[3]

---

[*] إصلاحات 1842 تم فيها تحديد عدد الأساتذة في الطبقات.
[**] إصلاحات 1862: محاولة تحويل الجامع إلى جامعة عصرية، لكن الفكرة فشلت.
[***] إصلاحات 1870: أعتنت بزيادة في الأجور ومراقبة الدروس.
[1] صلاح الدين التلالي: تونس الجديدة، تعريب محمد السنوسي، تونس: 1980، ص221.
[2] محمد لطفي الشابي : الزيتونة الدين والمجتمع والحركات الوطنية في المغرب العربي، عدد11، تونس: 2002، ص31.
[3] محمد الفاضل بن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية في تونس، الدار التونسية ، تونس: 1970، ص69.

لاسيما أن هذه المنطقة عرفت في هذه الفترة ثورة شاملة في المجال الفكري والعلمي والاقتصادي ونظرا للموقع المجاور فقد كان التأثير متوقعا خاصة على تونس.

وكذلك كانت رؤية محمد خير الدين باشا الذي اعتبر أن التقدم الذي حصل في أوروبا يعود إلى النظم السياسية التي دفعت عجلة التطور لأنها بنيت على العدل، الحرية، بعد أن طورت مناهجها التعليمية، وقد بين هذا خير الدين في كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك".

وقد لقيت دعوة كل من خير الدين وقبادو استجابة من بعض المصلحين أمثال الشيخ بيرم والشيخ بوسالم بوحجاب الذي سيكون له دور عظيم في حركة الإصلاح إبان الحملة الفرنسية على تونس سنة 1881.

ويتضح الدور الذي قام به خير الدين باشا عام في الإصلاح، عندما أقدم على إنشاء المدرسة الصادقية عام 1875.[1]

هذه المؤسسة التي عدت مدرسة ثقافة عصرية اهتمت إلى جانب العلوم الدينية واللغة العربية وآدابها اهتمت كذلك بالعلوم العقلية بالرياضيات والكمياء والعلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية التي كانت تدرس باللغة الفرنسية إضافة إلى دراسة اللغات الأجنبية مثل الفرنسية والإيطالية والتركية وكانت الدراسة بها تمتد لمدة سبع سنوات.[2]

لذلك تكون المدرسة الصادقية هي أول مدرسة عربية حاكت إلى حد كبير النموذج الأوروبي.

وفي نفس الوقت قامت تلك اللجنة التي أشرفت على وضع برنامج الصادقية بوضع برنامج إصلاحي في الزيتونة تضمن قائمة مواد التعليم وضبط كيفية سير الإمتحانات [3] والحقيقة أن الزيتونيون لم يقبلوا بإصلاح جذري للتعليم في المعهد، فقد عارض المحافظون من المشايخ في هذا التوجه الجديد.[4]

---

[1] Ali Mehdjoubi : Les origines du mouvement national en Tunisie (1906-1912, publication de l’université du tunis : 1996) P :114.

[2] علي محجوبي: النهضة الحديثة في ق19 لمادا فشلت بمصر وتونس ونجحت في اليابان، الدار التونسية للنشر، تونس: 1991، ص125.

[3] يوسف مناصرية: الحزب الحر الدستوري التونسي، 1919-1954، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان: 1983، ص16.

[4] علي محجوبي: المرجع نفسه ص125.

وظل بعضها مصر على أفكاره رافضا أي جديد حتى الربع الأول من القرن العشرين. غير أنه وجد من تشيع لفكرة خير الدين وهو الشيخ سالم بوحاجب حيث ادخل مكتبة جديدة على الجامع ضمت العديد من المطبوعات الحديثة الصادرة في المشرق وفي أوروبا[1].

وكانت نتائج هذه الدفعة الأولى من إصلاحات خير الدين باشا، أن تخرج جيل جديد ذا ثقافة ولغة مزدوجة، بعد أن كان المتعلمون صنفا واحدا وهم المتخرجون من الزيتونة، ومن رواد الصادقية البشير صفر أستاذ عبد الحميد بن باديس وعلي بوشوشة وغيرهم كثير ممن حملوا لواء التجديد والإصلاح مع مطلع القرن العشرين [2] بذلك اعتبرت فترة حكم خير الدين باشا فترة تقدم واضحة في تاريخ تونس الحديث.[3]

والحق أن تأثيرات خير الدين باشا لم تلفي بظلالها على حركة الإصلاح في تونس فحسب بل امتدت إلى كثير من الدول العربي الأخرى لاسيما كتاب "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" الذي ظل مرجعا أساسيا لدعاة الإصلاح والتطور.

فقد وضعت الأساس الأول لنهضة تعليمية حديثة تستجيب لمتطلبات العصر، والتحولات التي عرفها العالم في تلك الفترة خصوصا التقدم الذي حصل في أوروبا وبدأ تسربه نحو الشرق الإسلامي.

بذلك يكون خير الدين باشا قد ادخل اصلاحات هامة شملت تقنين الدراسة وتنظيم الإمتحانات والرفع من عدد المدرسين وتحسين أوضاعهم المادية، ثم تتابعت وتيرة الإصلاحات سنوات 1876–1898 ثم عام 1912 مقتبسة من الإصلاحات المصرية للأزهر والمعاهد ومؤسسات التعليم المستحدثة آنذاك كالصادقية والخلدونية.[4]

---

[1] الفاضل بن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية في تونس، الدار التونسية، تونس 1970، ص42.

[2] Toufik Ayadi: mouvement réformiste et populaire en Tunis (1906-1912), pb université de Tunis 1996, p33

[3] جلال يحي: مرجع سابق، م4 ص 238.

[4] الطاهر الحداد: التعليم الإسلامي، مرجع سابق ص23-25.

2 - الصحافـــة:

من العوامل التي دفعت بحركة الإصلاح في تونس هي الصحافة ودورها في الإيقاظ الفكري ومسايرة الحداثة والتجديد.

فقد عرفت تونس منذ 1860 سيلا من الصحف العربية، التي كانت تصدر بها، حيث اشتغلت النخبة التونسية بالطباعة بصورة أكثر تقدم وتطور رغم أن السلطات الفرنسية سعت إلى مقاومة انتشار المطبوعات العربية التي لا تساير توجهاتها الإستعمارية[1].

رغم ذلك فقد توفر في تونس في نهاية ق 19 بنية تحتية ثقافية متطورة، وقد ساهمت هذه الصحف في نشر الفكر الصحيح وبعث الهمم في نفوس التونسيين والزيتونيين خصوصا منها المرشد، مرشد الأمة والصواب، الوزير [*] والنديم التي كانت تصدر آنذاك [2] وقد تأثرت الصحافة التونسية بما كان يجري في الشرق (الآستانة ومصر) والتي عبرت عنها الصحف مثل المؤيد واللواء والمنار، هذه الصحف ذاتها التي كانت تصل إلى الجزائر عن طريق تونس حيث كانت المراقبة الفرنسية أخف وطأة.[3]

فقد كانت جريدة الحاضرة [*]التونسية التي أصبح مقرها تجمعا لرجال الفكر العربي الإسلامي، وتوحيدهم وفيه كانت تطرح قضايا ومشاكل العصر وتبرمج فيه النشاطات والأعمال.

كما أن جريدة سبيل الرشاد لعبد العزيز الثعالبي التي أنشأت سنة 1904 لعبت دورا أساسيا في نشر الفكر الإصلاحي الذي ظل يحن إلى الترابط والتكامل العثماني[4].

ولعل ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى صدى أفكار جمال الدين الأفغاني من خلال الدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

ويبدو جليا تأثر الصحافة الإصلاحية بصحيفة المنار التي كان يصدرها رشيد رضا منذ عام 1888 فقد انتشرت هذه الصحيفة في تونس انتشارا كبيرا، ذلك أنها كانت تعبر تماما عن رأي المجددين، فكانت تعالج في مقالاتها المسائل الفقهية ومسائل عقائدية مما علق بالدين من شوائب

---

[1] محمد فلاح العلوي: "التعليم في الزيتونة"، الزيتونة الدين والمجتمع، مرجع سابق، ص23.
[*] نشرة إسلامية إصلاحية أسبوعية أسست في أفريل 1920، صاحب إمتيازها الطيب بن عيسى، شعارها "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب" (مركز الدوريات - تونس).
[2] محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، ط2، الشركة الوطنية للتوزيع والنشر، الجزائر: 1981، ص57، ج1 ص57.
[3] محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 – 1939، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1980، ص8.
[*] أسسها البشير صفر سنة 1888 هذا الأخير الذي لقب بأبي النهضة التونسية.
[4] جلال يحي: مرجع سابق، م4، ص240.

مثل الكرامات وزيارة الأولياء والتبرك بهم، كما دعت الصحيفة بصراحة إلى ضرورة إصلاح مناهج التعليم لتكون متماشية مع العصر... ولما كانت مناصرة لحركة التجديد في التعليم والإصلاح الديني، فقد تبناها كثير من دعاة التجديد في الزيتونة وقد عمد رشيد رضا إلى أسلوب المجاملة مع فرنسا أحيانا حتى لا يمنع دخولها إلى الجزائر وتونس[1].

ورغم الإجراءات المتخذة من أجل وصول هذه الصحف فإنها كانت تصل إلى الجزائر بطرق شتى.

حركات التجديد في المشرق: (جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، ورشيد رضا)

من العوامل التي آثرت بشكل مباشر في حركة الإصلاح الزيتوني، هي حركة التجديد الإسلامي بزعامة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وقد برز ذلك التأثير بوضوح من خلال جمعية العروة الوثقى التي كانت تضم في عضويتها محمد بيرم والشيخ محمد السنوسي وبفضل دعوة السنوسي لهذه الجمعية انخرط فيها عدد من المثقفين والعلماء[2].

وكنتيجة على التواصل بين حركة الجامعة والتجديد في تونس فقد صارت جريدة العروة الوثقى تصل إلى تونس، حيث يذكر اندري جوليان[3] أنه صدر منها ثمانية عشر عددا قبل تعطيلها.

أما تأثيرات محمد عبده فقد كانت أكثر وضوحا ولما لقيته دعوته من قبول لأنها كانت في بعث النهضة العربية الإسلامية بالرجوع إلى القرآن الكريم والسنة الصحيحة وإنكار البدع وضرورة الأخذ بالحياة العصرية دون تعارضها مع الدين.

وقد كان من أكثر الداعين إلى ضرورة إدخال العلوم التجريبية كالرياضيات والكيمياء وغيرها.[4]

ومن الثابت أن محمد عبده كان قد زار تونس عام 1884 وحضر جانبا من الدروس بجامع الزيتونة وهناك اتصل بكثير من التونسيين، وقد كان لزيارته هذه أكثر خصوبة فكان تأثيرها أكثر من أي إقليم آخر في شمال إفريقيا ولقد نتج عن هذه الزيارة بذر البذور الأولى لفكرة إنشاء المدرسة الخلدونية الحديثة في تونس وهي المدرسة التي أنشأها بشير صفر من خريجي المدرسة

---

[1] محمد الفاضل بن عاشور: مرجع سابق ،ص80.
[2] محمد الفاضل بن عاشور: "الشيخ محمد السنوسي" ، المجلة الزيتونية ج3، مجلد8، ص144.
[3] شارل اندري جوليان: المعمرون الفرنسيون وحركة الشبان التونسيون، تعريب محمد مزالي، تونس، ص47.
[4] محمد الفاضل بن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية، مرجع سابق، ص59.

الصادقية كي يتم بها الرسالة التي بدأها في المدرسة الصادقية من قبل [1] وكنتيجة لهذه الزيارة بدأت بوادر التغيير تتجلى حيث وجهت انتقادات شديدة للتعليم الزيتوني الذي ظل متقوقعا رافضا العلوم العصرية، وقد كانت هذه مقدمة المطالب الإصلاحية.

كما أن هذه الرحلة جنت ثمارها الأولى إذ شهد الوسط الزيتوني حركات إحتجاجية طالب فيها المحتجون بالحقوق الإدارية والسياسية في تونس[2].

ونتيجة للحفاوة التي وجدها محمد عبده وإيمانه بفكرة التجديد والإصلاح فقد زار تونس للمرة الثانية في أوت 1903، وهناك التقى بعلماء ومشايخ الزيتونة أمثال سالم بوحاجب ومحمد الطاهر بن عاشور[3].

وفي المدرسة الخلدونية ألقى محاضرة بعنوان "العلم وطرق التعلم"، هذه المحاضرة التي أصبحت عنوانا جديدا للإصلاح الزيتوني في مطلع القرن العشرين.

ونتيجة لهذا البعد الذي أحدثه محمد عبده من خلال نشره الفكر الإصلاحي التجديدي في كامل الوطن العربي الإسلامي، تلقفته النخبة الوطنية التونسية بصدر رحب وراحت تنسج على منواله الفكر الجديد الذي يستجيب لمتطلبات العصر والتطور.

في حين ظل بعض المحافظين في تونس ومن الزيتونة أنفسهم يرفضون هذا التوجه متمسكين بالتقاليد القديمة.

فقد شهدت السنوات الأولى من القرن العشرين (20) في تونس تجمع من خريجي المدرسة الصادقية على أساس عربي إسلامي واضح وازدادوا عليه بجزء هام من الثقافة الأوروبية المتحررة[4].

وبعودة عبد العزيز الثعالبي من المشرق يحمل فكرة الجامعة الإسلامية بلغت حركة الإصلاح التجديدي ذروتها، وكان بالتالي الإصرار على ضرورة التغيير التعليمي والديني والسياسي والإجتماعي في تونس[5].

---

[1] جلال يحي: مرجع سابق، م4 ص، ص 238، 239.
[2] محمد الفاضل بن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية، مرجع سابق، ص60.
[3] أحمد خالد: أضواء من البيئة التونسية على الطاهر الحداد ونضال جيل، تونس، الدار التونسية للنشر، ص39.
[4] جلال يحي: المرجع نفسه، م4 ص239.
[5] محمد الفاضل بن عاشور: المرجع نفسه، ص76.

والحق أن عبد العزيز الثعالبي لم يكن إلا تلميذا نجيبا لمدرسة محمد عبده والأفغاني، إذ سلك نفس إتجاه تلك المدرسة في بناء أسس النهضة والإصلاح التي كان لها الأثر الكبير على حركة الإصلاح في تونس والجزائر.

التأثيرات الأوروبية:

كانت تونس تظم جاليات أوروبية عديدة، ولعل ذلك يعود إلى الموقع الجغرافي حيث وجد الإيطاليون والفرنسيون بصفة خاصة، وقد أدى هذا التواجد إلى ضرورة الاحتكاك والتأثير والتأثر، وقد كان تأثير هؤلاء الأجانب في المجال الثقافي جليا إذ يعتبرون أول من أدخل المطبعة الحبرية سنة 1857 من باريس وتطور الأمر فيما بعد إلى إحداث مؤسسات مطبعية أدارها فرنسيون وايطاليون ومالطيون أذنت لهم بطبع الكتب والصحف العربية[1].

لقد كان للثورة الصناعية التي عرفتها أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أثر كبير على انتشار الثقافة من خلال تطور وسائل الاتصالات وأدوات الطباعة التي ساهمت بشكل كبير في تسرب الثقافات بين المناطق المختلفة.

وتعتبر هذه خدمة ثمينة ساهم بها الأجانب في تونس لا يمكن إغفالها إذ تعتبر الطباعة إحدى أهم وسائل النشر والإصدار في وقت كانت هذه الوسيلة التثقيفية قليلة الانتشار خاصة في العالم الإسلامي وكانت محتكرة فيمن يملكون مقاليد التقدم والحضارة.

كما أن الرحلة من قبل التونسيين أنفسهم شكلت رصيدا مهما أمكنهم الإطلاع على ما يحصل في العالم من تغيير وتطور ونهضة، وقد اعتبرت الرحلة التي قام بها خير الدين باشا لمختلف الدول الأوروبية حيث تعرف على نهضتها وقد اثبت هذا في كتابه "المسالك في معرفة أحوال الممالك".[2]

والرحلة ليست غريبة على العرب والمسلمين منذ العهود السالفة، حيث ظلت دوما تشكل منبعا للتعرف على ثقافة وحضارة وتقاليد الآخرين مثل رحلة ابن بطوطة الشهيرة.

والنتيجة أن الربع الأخير من القرن التاسع عشر قد عرف تحولا هاما في مسار النهضة والإصلاح.

---

[1] محمد فلاح العلوي: "الطباعة ومسايرة التقليد"، الزيتونة، الدين والمجتمع، مرجع سابق، ص23.

[2] علي محجوبي: مرجع سابق ص 86.

خاتمة الفصل:

من خلال ما تقدم في هذا الفصل الذي عالج الواقع الثقافي في الجزائر وتونس قبل ظهور النهضة والإرهاصات التي أدت إلى بعثها نستنتج ما يلي:

أن الحياة الثقافية في الجزائر وتونس لم تختلف عن بعضها البعض لاسيما في القرن التاسع عشر، حيث مرت بنفس الظروف وواجهت نفس العقبات فالسمة الغالبة أن البلدين عرفا جمودا فكريا وتدهورا ثقافيا كانا للاحتلال الفرنسي دور كبيرا فيه خاصة الجزائر التي تعرضت لإبادة ثقافية من خلال محاربة فرنسا للتعليم العربي والسعي إلى تعطيل المؤسسات التعليمية والثقافية.

ومما هو معلوم أن تونس شهدت في نفس الفترة تعرض المؤسسة التعليمية العريقة إلى تراجع كبير في أداء دوره التثقيفي والتعليمي والإصلاحي.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأت بوادر الإصلاح في البلدين خاصة تونس والتي نبغ فيها مصلحون مجددون يعود لهم الفضل في إرساء قواعد النهضة أمثال خير الدين باشا ومحمود قبادو.

ومع وصول تأثيرات المشرق بزعامة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في نهاية القرن والتي كان لها وقع حسن على حركات الإصلاح، حيث استفادت كل من الجزائر وتونس تبدأ فعلا إرهاصات نهضة جدية في الوطن المغاربي.

لقد أفادت تونس بأن أخرجت للعالم العربي عددا من رواد الحركة الوطنية الإصلاحية أمثال باشا حامبه، وبشير الصفر الذي أنشأ المدرسة الصادقية سنة 1896.

في بداية القرن العشرين تخرج عدد من رواد الحركة الإصلاحية من المدارس الحديثة في تونس وقد استندوا إلى أساس عربي إسلامي واضح وعملوا على بعث حركة قومية ودينية جديدة.

يعتبر الشيخ عبد العزيز الثعالبي مثالا للقائد والزعيم الذي جمع عناصر القيادة إضافة إلى باشا حامبه.

أما في الجزائر فقد برز تيار إصلاحي مستفيد من جميع التحولات التي عرفتها البلدان العربية سواء في تونس أو المشرق، كما شكلت أفكار الجامعة الإسلامية ينبوعا إضافي لهذا الإتجاه الذي أعتنق تلك الأفكار وآمن بها والتي كانت تدعو إلى التحرر والعودة بالأمة إلى تاريخها ومجدها.

وهكذا بدأ دور المثقفين الجزائريين يبرز في تونس خاصة، في وقت أغلقت في وجوههم منافذ المعرفة كسياسة انتهجها الاحتلال لطمس مقومات البلاد.

وقد صارت الصحف التونسية كالحاضرة والعصر الجديد [*] ميدانا للأقلام الجزائرية حيث كانت تنشر مقالات أكثر جرأة مما كتبوه فيما بعد في الصحف الجزائرية.

والحق أن كثيرا من رواد النهضة والإصلاح في الجزائر التحقوا بالجامع العتيق في تونس للتزود بالعلم، كما أن عددا معتبرا من رواد النهضة هم من أصول جزائرية كانوا قد هاجروا وطنهم تحت ضغط ظروف استعمارية قاسية أمثال عبد العزيز الثعالبي وتوفيق المدني والشيخ صالح الإباضي، والشيخ خضر حسين الطولقي الجزائري وغيرهم ممن حملوا لواء النهضة والتجديد والمقاومة في تونس الشقيقة وفي الجزائر.

يمكن أن نستخلص كذلك أن حركة الإصلاح والتجديد في تونس والجزائر كانت ذات منطلقات واحدة وهدف واحد ولذا امتزجت العواطف والهمم، وهذا ليس بالأمر الغريب إذا علمنا أن الشعبين ينتميان إلى أمة واحدة وما الحدود السياسية إلا من افتعال الاستعمار.

---

[*] جريدة يومية سياسية وطنية أدبية علمية، تصدر مرتين في الأسبوع، في صفاقس، مديرها أحسن حسين المهيدي، صدرت عام 1936، شعارها "من تسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحدة ظل أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان"

الفصل الثاني: رواد الطلبة الجزائريين في جامعة الزيتونة

أ- أسباب إختيار الجزائريين لجامع الزيتونة

ب - ابن باديس وعلاقته بالرواد المصلحين الجزائريين

ج - دور الرواد في حركة الإصلاح والتجديد

أولا: المجال الصحفي

ثانيا: المجال الأدبي

ثالثا: المجال العلمي

رابعا: المجال السياسي

خاتمة الفصـــل

رواد الطلبة الجزائريين في جامعة الزيتونة

يجمع أغلب المؤرخين على أن وجهة الجزائريين في طلب العلم كانت أغلبها إلى تونس الشقيقة لاسيما بعد أن تعرضت الجزائر للاحتلال الفرنسي سنة 1830، وبعد أن سدت أبواب المعرفة وما يكاد يذكر علما مرموقا في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين في المجال الأدبي أو العلمي أو الفكري أو السياسي إلا ويكون قد نهل من الزيتونة والمعاهد التابعة لها.

والكل يقر بالدور العظيم الذي قام به ابن باديس في مستهل القرن العشرين من أجل مد جسور التواصل بين البلدين من خلال تنظيم البعثات العلمية وتشجيعها.

أسباب اختيار الجزائريين لجامع الزيتونة

إذا كانت القيروان والمهدية وبجاية وتلمسان لفترة طويلة مشعل للثقافة والعلوم المختلفة وكان يؤمها العلماء من كل جهة.

ففي العهد الحفصي انتقل مركز الثقل العلمي إلى تونس، حيث أنشئت المدارس والجوامع خصوصا وأن أولي الأمر أولوها اهتماما كبيرا فصارت الرحلة لطلب العلم من الجزائر إلى تونس وإلى المشرق منظمة، وفي هذا يقول محمد الصالح الجابري:" باشتهار مدينة تونس وانتقال مركز الثقل العلمي إليها منذ العصر الحفصي وما عرف عن الحفصيين من احتفائهم بالعلماء وإنشاء الجوامع والمدارس وترتيب القوانين لها، اختصرت طرق الرحلة العلمية من الحواضر والمدن الجزائرية وأصبحت المسافة الفاصلة بينها وبين تونس العاصمة ايسر سبيلا وأقل جهدا في صحبة القوافل الوافدة عليها، سواء من قسنطينة أو بلاد العناب أو حتى من بجاية وبسكرة بجنوب الجزائر"[1].

ولعل قرب مدينة تونس من الحواضر الجزائرية الشرقية وخصوصا منها مدينة بجاية ووادي ميزاب هو الذي اختصر كلفة الرحلة إليها فتعدد المقبلون على جامع الزيتونة وعلى المدارس الأخرى التي تكاثر عددها خلال هذا الفترة"[2].

---

[1] محمد صالح الجابري: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962، الدار العربية للكتاب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1983، ص23.

[2] المرجع السابق: ص 24.

والحق أن البلدان المغاربية في العهود ما قبل الإحتلال الأوروبي لم تكن بينها حدود تفرق بين سكان المغرب الأوسط والمغرب الأقصى والمغرب الأدنى وسكان طرابلس، بل فقد كان المال السياسي والجغرافي مفتوح أمام حركة طلاب العلم والتجار وهواة الهجرة والتنقل بين المدن في تلك العصور.

ولم يكتف الجزائريون بأن تعلموا ونهلوا من مدارس تونس وجامع الزيتونة، بل أن شغفهم وتفوقهم مكن الكثير منهم أن يصبحوا فيما بعد أساتذة ومدرسين في هذه الجوامع فنبغ منهم الأدباء والفقهاء والفلاسفة والشعراء، خصوصا في القرن الثالث عشر والرابع عشر للميلاد ومن أبرزهم" ابراهيم بن يخلف التنسي وعبد المنعم الغساني الفقيه وعبد الوهاب بن عبد القادر البجائي وعبد الرحمان الأوصولي وعبد الرحمان الشاطبي ومحمد بن قريون"[1].

وهكذا فان هاته القرون، شهدت نبوغ الكثير من الجزائريين الذين تتلمذوا في الزيتونة سواء في علم الحديث أو القضاء والمنطق والفقه، ومنهم من عاد إلى الجزائر فاشتغل بالعلم والقضاء والتدريس، ومنهم من بقي هناك باعتبار أن العلم لا حدود له.

حتى أن بعضهم تولى الإمامة بالزيتونة لفترة طويلة أمثال أبوالقاسم العبريني ومحمد بن بلقاسم الأنصاري المتوفي سنة 1489"[2].

وهكذا نرى الخريجين الجزائرين من جامع الزيتونة لا يعودون جميعا إلى بلادهم، بل أن البعض منهم يستقر في تونس طول حياته مدرسيا، كان أم أديبا، أم تاجرا، أو فقيها، لأن الناس لم يكون يفرقون في ذلك الوقت بين الجزائر وتونس، أو الجزائر أو المغرب، بل أن الأمر كان عندهم سيان.

إن الرحلة إلى تونس في ظل ازدهار المعاهد وتوسعها ودعم الحكام والأمراء قد مكن الكثير من رواد الرحلة لطلب العلم من الجزائريين أن يحققوا رغباتهم وتطلعاتهم وقد مكنهم جدهم وتفوقهم لتأسيس عدة مراكز كانت على مر الفترات التاريخية محطات لرجال العلم ومنارات، وفي مقدمة هذه المراكز القيروان، بجاية، تلمسان، تونس وغيرها. الأمر الذي مكن من ازدهار الحركة العلمية في إفريقيا وربوع الجزائر"[3].

---

[1] محمد صالح الجابري: النشاط العلمي، المرجع السابق، ص25.
[2] المرجع نفسه، ص27.
[3] المرجع نفسه ، ص30.

وعموما فأن هذه الفترة تميزت بتبادل المواقع وإنجاب النبغاء وإلغاء الحواجز الحدودية والجغرافية إذ كان العلماء لا يشعرون بانتماء إلا للعلم، ومواطن العلم ولا يطيب لهم العيش إلا حيث رجاله وطلابه.

وبحلول القرن التاسع عشر تعرضت المنطقة المغاربية إلى الاحتلال الفرنسي، فتمت السيطرة على الجزائر سنة 1830، ثم تونس 1881، ومنذ الوهلة الأولى للاحتلال كانت أهداف الاستعمار واضحة ففي الجزائر كان إستطانيا حيث أراد القضاء على مقومات الأمة ومحو شخصيتها فلجأ إلى سياسية الإبادة ومحاربة العلماء والمثقفين وهذا ما جعل الكثير منهم يفرون إلى جهات عديدة.

وقد اعتمد الاحتلال سياسة: "القضاء على العروبة كجنس والإسلام كدين وحضارة وثقافة، كي يتمكن من تنصير الجزائريين وفرنستهم تمهيدا لإدماجهم في الكيان الفرنسي العام"[1].

والحق أن حلم إحتلال فرنسا للجزائر لم يكن وليد تلك الفترة بل أن الرغبة الملحة للفرنسيين قد تبلورت منذ أن كانت البحرية الجزائرية سيدة البحر المتوسط، وفرضها لهيبتها وقوانينها في البحر، وبمجرد ضعف الدولة العثمانية وتراجع الدولة الجزائرية، بدأت الإستفزازات الفرنسية للأسطول الجزائر، وهذا ما جعل مسألة الجزائرية تعرض في المؤتمرات الأوروبية الكبرى، كما حصل في مؤتمر "أكسلا شابيل" عام 1818 ومؤتمر فينا سنة 1830، حيث جرمت الجزائر بسبب أعمال القرصنة.

وبعد الإحتلال تعمدت فرنسا سن القوانين التعسفية لقمع المقاومات المسلحة وتشجيع الهجرات الجماعية من أوروبا إلى الجزائر، وفي المقابل إرغام الجزائريين على هجرة وطنهم، وقد استمر هذا النزيف إلى غاية الحرب العالمية الأولى، لاسيما من قبل طالبي العمل والعلم خصوصا وأن فرنسا استهدفت الثقافة بالدرجة الأولى على عكس ما حصل في تونس، وهذا ما جعل الكثير من طلاب العلم من التوجه إليها.

وعلى الرغم أن هجرة الوطن أخذت شكلا مأساويا في حياة الجزائريين، فإن الهجرة خلال هذا القرن كانت بمثابة فرارا من الظلم، وطلبا للمعرفة، وحفاظا على الهوية العربية الإسلامية،

---

[1] رابح تركي: المرجع السابق ، ص96.

وقد أتاحت هذه الهجرة بعث روح جديدة في الجزائريين، لتعود بعد ذلك فتنفخ في الجزائر ما يرد إليها حياتها، ويدفعها في سبيل استرداد شخصيتها"[1].

وقد نجحت حركة الإصلاح والتجديد في وضع خطة هادفة إلى إعادة مد الجسور الثقافية والعلمية إلى الجامعات العربية ومغالطة المستعمر الذي لم يتفطن في بادئ الأمر إلى أهمية البعثات على مستقبل الثورة الثقافية في الجزائر، إلا عندما فوجئ بطلائع تلك البعثات وهي تساهم في الحركات الإصلاحية التجديدية في الجزائر.

عقب عودة ابن باديس سنة 1913 إلى قسنطينة بدأ في وضع اللبنات الأولى والأساس المتين لذلك البنيان الذي تمثل في ضرورة الحفاظ على كيان الأمة الحضاري والثقافي والقومي، ومنذ ذلك الوقت صارت البعثات في اتجاه تونس منظمة ومخطط لها ويرجى منها أهدافا بعينها، تذكر بتلك البعثات التي قام بها اليابانيون في اتجاه الغرب لتحصيل العلم والمعرفة بعد أن قضت اليابان عهدا طويلا في عزلة تامة عن العالم.

وان كان هذا التوجه المدروس قد توقف إبان الحرب العالمية الأولى فقد تجدد مرة أخرى بأكثر نشاط وحيوية وإسرار على تحصيل العلم والمعرفة خاصة وأن الاحتلال ظل يمارس سياسة الإبادة الثقافية وتجفيف المنابع للقضاء على البنية التحتية لكل أشكال الثقافة والعلم، فلم يبق أمام الجزائريين والحال هذه سوى الهجرة إلى تونس أو المشرق أو الحجاز أو حتى إلى أوروبا، وفي ظل التحولات العالمية الكبرى وتطور وسائل التثقيف، وسهولة الاتصالات وبروز الأفكار الحرة بانقسام العالم إلى معسكرين* وبروز قوى جديدة مع أفول نجم القوى التقليدية ** والنظم الإمبراطورية التي تسلطت على العالم لفترة طويلة، وحكمت الشعوب بنوع من الاستعباد والاستغلال.

إن نهاية الحرب العالمية الأولى وما تبعها من تحولات هامة في كل المجالات جعل عدد البعثات العلمية إلى الزيتونة، يزداد سنة بعد أخرى ومع نهاية الربع الأول من القرن العشرين كانت الطليعة الأولى للبعثات الباديسية والتي مثلها محمد مبارك الميلي، العربي التبسي، الزاهري،

---

[1] طه محمد الحاجري: المرجع السابق ، ص108.

* انقسم العالم بعد الحرب العلمية الثانية إلى قطب غربي رأسمالي بزعامة الولايات المتحدة، وقطب شرقي شيوعي بزعامة الإتحاد السوفياتي، ودارت بينهما حربا عرفت بالحرب الباردة.

** المقصود بها فرنسا وبريطانيا التي خرجت من الحرب العالمية الثانية منهكة ضعيفة، والمعروف أن هذين الدولتين كانتا تفرض سيطرة إستعمارية على أغلب شعوب العالم، حتى سنة 1945، حيث ظهرت دول منافسة، ص33.

عبد السلام القسنطيني ومحمد العيد آل خليفة وغيرهم كثير، هؤلاء الطلائع الذين مثلوا بلادهم أحسن تمثيل وكانوا من خيرة الجنود الذين راهن ابن باديس على كسب المعركة العلمية ضد الجهل والتخلف[1].

ويجب أن نذكر هنا أن حركة الإصلاح قبل العشرينات التي تزعمها ابن الموهوب والمجاوي، وبرغم أهميتها فإنها افتقدت لعنصر التجديد ومواكبة العصر إلى أن جاء ابن باديس كرائد للفكر الإصلاحي التجديدي مستفيدا من الأوضاع المحلية والخارجية.

وقد توالت البعثات في اتجاه جامع الزيتونة بأكثر تنظيم فلم يقتصر على طلبة الشرق الجزائري فحسب، بل مس العديد من جهات الوطن حتى وان كانت المدن الجنوبية كمنطقة وادي ميزاب، أكثر اتصالا بالجامع العتيق، حيث كانت أول بعثة علمية إلى الزيتونة من هذه المنطقة سنة 1917 بزعامة الشيخ اطفيش[2]"[*].

وقد تخرج بعد ذلك الكثير من الشعراء والأدباء من بني ميزاب ممن درسوا من الزيتونة أبرزهم ابن الحاج عيسى "أبو اليقضان"[**]، الشيخ صالح بن يحيى، مفدي زكرياء، علي دبوز.

وفي الزيتونة حدث الالتقاء والتلاحم الوطني فإذا كان الاستعمار قد استهدف تمزيق الجزائر وتشجيع النعرات الطائفية والمذهبية في ربوعها فان غرض الطليعة المتعلمة هو الصدع بالنهضة والتجديد ولم الشتات وتوجيه الأنظار نحو العدو المشترك، مستخدمين في هذا السبيل أخطر الأسلحة وأمضاها ألا وهو سلاح الثقافة والفكر وقد كانت المدن الحدودية سواء في الجزائر أو تونس محطات مهمة لتلقي العلوم الأولية خاصة حفظ القرآن الكريم على أيدي مشايخ غالبا ما يعكفون على تعليم القرآن وتحفيظه، ليتوج هذا الجهد بالإنتقال إلى الزيتونة حيث تحصل العلوم الأخرى، وفي هذا يقول مالك بن نبي[3]: "كان في تبسة فوران من الأفكار حقا يحفظه ويرعاه

---

[1] محمد الصالح الجابري: مرجع سابق، ص36.

[2] المرجع نفسه ، ص33.

[*] 1886-1949م، ولد ببلدة بني يزقن بوادي ميزاب، من عائلة عريقة في العلم، تتلمذ على يد الشيخ عبد القادر المجاوي، وعلى يد عمه الشيخ أطفيش رحل إلى تونس سنة 1917 حيث التحق بجامع الزيتونة، انتزع إعجاب أساتذته هناك خاصة محمد بن يوسف الحنفي والشيخ محمد النخلي، كان من أبرز المدافعين عن الحركة الإصلاحية، مستخدما في ذلك وسائل الإعلام والدعاية، انظم إلى الحزب الدستوري التونسي بزعامة عبد العزيز الثعالبي، نفي إلى القاهرة (بوصفصاف وآخرون: مرجع سابق، ص184).

[**] 1888-1973م، عميد الصحافيين الجزائريين في العهد الإستعماري، صارع الإستعمار الفرنسي بالكلمة والقلم، ولد بمدينة القرارة إحدى واحات غرداية تتلمذ على يد الشيخ أطفيش، سافر إلى تونس سنة 1912 ليواصل تعلميه العالي في جامع الزيتونة، تتلمذ على يد الشيخ عبد العزيز جعيط، والشيخ الطاهر بن عاشور، والصادق النيفر، كما درس بالخلدونية، حيث تلقى العلوم الطبيعية، انخرط في الحزب الدستوري التونسي سنة 1920، وهناك ربطته صداقة متينة بزعيمه عبد العزيز الثعالبي، أصدر أول جريدة "وادي ميزاب" سنة 1926، ثم أصدر جرائد أخرى مثل المغرب، النور، البستان، الفرقان، ترك عدة مؤلفات، منها حياة سليمان الباشا الباروني، كما ترك عدة كتب غير مطبوعة، المرجع نفسه، ص110.

[3] مالك بن نبي: شاهد القرن، مذكرات ج1، دار الفكر المرادية، الجزائر: 1986، ص80.

ويصونه العلماء الذين اخذوا يعودون من الشرق، ولا يفوتنا أن نذكر أنهم كانوا يحفظون سنة من تبسة سنها شيخ من نفطة[***].

وقد أظهر الطلبة الجزائريون خلال هذه الفترة جد ومثابرة استحقت التقدير بعد أن تركوا وطنهم وأهلهم من أجل العلم، وقد كان فضل هؤلاء كبير في إرساء قواعد التعليم الصحيح، والإهتمام بالقرآن الكريم واللغة العربية وتصحيح المغالطات التي سعى الإحتلال إلى نشرها في صفوف الشعب الجزائري.

وكان لابد من الاصطدام بالطرق الصوفية التي كانت منتشرة في الجزائر حيث تحول أغلبها إلى خدمة الاستعمار و صارت أداة في يده يوجهها كيفما أراد.

والحق أن إرساء نهضة علمية شاملة لم يكن ليسعه شخص أو فرد واحد، صحيح أن القيادة ضرورية والتي مثلها ابن باديس بكل حنكة واقتدار إلا أن العمل الجماعي والأخوي والتضافر الذي أظهره علماء الجزائر من خريجي الزيتونة وغيرها أعطى نموذجا رائعا من حيث النضال والجهد.

ولم تكد الحرب العالمية الثانية تندلع حتى توقف بسببها كل نشاط للهجرة العلمية، ولكن كانت الجزائر تزخر بعشرات الخريجين خرجي الجامع الأعظم انتصبوا للتدريس بالمعاهد والمساجد تطوعا، وإعطاء الدروس بالمجان[1]".

في نفس الوقت كانت الحركة الوطنية في تونس تسير على خطى ثابتة مستفيدة هي الأخرى من التحولات التي عرفتها معاهد التعليم كما استفادت من التحولات المحلية والخارجية، كما اكتسبت تجربة رائدة في حركة النهضة والبعث.

[***] نفطة هي إحدى قرى واحات الجنوب التونسي على الحدود التونسية الجزائرية اشتهرت بنشاطها العلمي وانتساب كثير من الشعراء إليها.

[1] محمد صالح الجابري: المرجع السابق، ص44.

أبرز المشاهير الزيتونيين في القرن العشرين من حيث المولد والوفاة[1]

الإسم واللقب	الولادة والوفاة	ملاحظات
صالح بن مهنة	1854–1910	من مواليد القل، نشأ بقسنطينة وتعلم بها
محمد المكي بن عزوز	1854–1915	من طولقة (بسكرة) توفي بالآستانة
محمد التوهامي شطة	؟ – 1915	من الأغواط توفي سنة بالآستانة بعد أن مكث مدة في سوريا
الحنفي عاشور	1848–1929	
بن سماية عبد الحليم	1866–1933	من مدينة الجزائر، أشتغل بالتدريس
السوفي ابراهيم	1888–1934	
حسين بولحبال	1897–؟	
عبد الحميد بن باديس	1889–1940	ولد بقسنطينة درس بالزيتونة
مبارك الميلي	1898–1940	ولد بميلة تعلم بقسنطينة ثم الزيتونة
مامي اسماعيل	1889–1956	
الزاهري محمد السعيد	1899–1956	ولد في قرية ليانة في بسكرة تعلم في قسنطينة ثم في تونس
العربي التبسي	1895–1957	ولد في تبسة تعلم في نفطة كان مصلحا فريدا من رواد الزيتونة
أطفيش إبراهيم	1888–1965	من بني يزقن تعلم في تونس نفي إلى القاهرة حتى وفاه الأجل
أبو اليقضان	1888–1973	من بني يزقن عاد إلى الجزائر سنة 1925 من تونس
رمضان حمود	1906–1929	من غرداية تعلم بتونس توفي في مسقط رأسه
مفدي زكرياء	1912–1976	ولد بوادي ميزاب رحل إلى تونس لإتمام دراسته أنتقل إلى المغرب
هواري بومدين	1932–1978	من مواليد قالمة أنتقل إلى تونس عام 1949 واصل تعليمه في الأزهر

---

[1] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة النويهض الثقافية، بيروت:1978، د.ت، ص356،320.
الكتاني: فهرس الفهارس، ج2، فاس: 1347هـ، ص328.

مشاهير الزيتونيين الجزائريين خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين[1]

الإسم واللقب	تاريخ والولادة بالهجري	تاريخ الولادة بالميلادي
أطفيش إبراهيم	1385–1305	1965–1888
بن باديس عبد الحميد	1359–1308	1940–1889
بولحبال حسن	؟ –1315	؟ –1897
السبتي العربي	1276 –1312	1957 – 1895
التهامي شطة	1333 – ؟	1915 – ؟
الحنفي عاشور	1347 –1264	1929 – 1847
الزاهري محمد السعيد	1376 –1318	1956–1899
عزوز بن محمد	1334–1270	1915–1854
السوفي إبراهيم	1353–1307	1934–1888
سماية بن عبد الحليم	1351–1283	1933–1866
مامي اسماعيل	1376–1308	1956–1889
مهنة بن صالح	1323–1271	1910 –1854
الميلي مبارك	1364–1316	1945–1898
اليقضان أبو إبراهيم	1393–1306	1973–1888
الزاهري الهادي	1383–1320	1969 –1902
رمضان حمود	1347–1324	1929 –1906
صالح بن يحي	1367 – ؟	1948 – ؟
مفدي زكرياء	1396–1331	1976 – 1912
هواري بومدين	1399–1351	1978–1932

[1] عادل نويهض: المرجع السابق، ص356.

ابن باديس وعلاقته بالرواد المصلحين الجزائريين من خريجي الزيتونة:

لقد أعتنق ابن باديس الفكرة الإصلاحية في رحاب الزيتونة لما قدم إليها سنة 1908 وتخرج منها سنة 1911 مختصرا سنوات التكوين من 7سنوات إلى 3 سنوات ثم اشتغل مدرسا سنة ليعود بعدها إلى الوطن عام 1913، فيضع بذلك أسس التعليم الحديث في الجزائر، فالفضل يعود إليه في إعادة بعث الأمة الجزائرية من جديد، رغم الظروف القاسية التي مرت بها الجزائر في تلك الفترة، ورغم العقبات العسيرة التي واجهته إلا أنه أستطاع أن يبذر البذور الأولى للإصلاح والتجديد.

ويصرح ابن باديس أن الفضل في تكوينه العلمي والإصلاحي يرجع إلى أساتذته في الزيتونة وعلى رأسهم محمد النخلي والبشير صفر والنيفر والطاهر بن عاشور، يقول ابن باديس:[1] "المشايخ الذين علموني العلم وخطوا لي مناهج العمل في الحياة ولم يبخلوا إستعدادا في حقي أذكر منهم رجلين كانا لهما الأثر البليغ في حياتي العلمية أحد الرجلين هو حمدان لونيسي، أما الثاني فهو محمد النخلي القرواني".

ولقد ظل ابن باديس يذكر أساتذته بخير ويثني عليهم ثناءا كبيرا لأن أحس فعلا بذلك الفضل وتلك المنة.

فالحديث عن المنطلقات الفكرية للحركة الوطنية الإصلاحية يعود بلا شك إلى الزيتونة على أساس أنها المدرسة التي تربى فيها ابن باديس[2].

إذ يقر ابن باديس بدور أساتذته حيث أنهم أسدوا نصائحهم له ونزعوا عن بصيرته غشاوة التقليد وتخليص أسلوبه من الزلات اللفظية وإيقاظ حسه بالعروبة والإسلام، بذلك يكون الوسط الزيتوني عموما لعب دورا في تكوينه السياسي من خلال مطالعته الجرائد والمجلات والمقالات السياسية والإخبارية والتحليلية حول الوضع العام في الجزائر.

عند عودة الشيخ ابن باديس إلى قسنطينة عام 1913 وهو عالما حاملا لشهادة التطويع في ظرف قصير، لم يزل شابا يافعا، منذ تلك السنة أدرك ثقل المسؤولية التي ألقيت على عاتقه في بعث أمة للحياة من جديد.

---

[1] ابن باديس: مجلة الشهاب الجزء الرابع، م14، جوان، جويلية 1938.

[2] محمد صالح الجابري: المرجع السابق، ص75.

إنه من السهل تأليف كتاب أو قصة لكن ليس من السهل بناء أمة أو بعثها بعد أن عبث الدهر بها من خلال سياسة المحتل وأتباعه، ولقد عمد ابن باديس إلى إرساء سنة التواصل بين أبناء الجزائر والزيتونة فبدأ في تنظيم بعثات من قسنطينة إلى الزيتونة لتكوين طلائع تعيد بناء الجسور، في نفس الوقت إنتصب للتدريس في المساجد الجزائرية وقرر أن يكون واسطة لعقد حلقات دراسية مثل التي شهدها في تونس والتي فتحت عليه آفاقا جديدة وفتحت نظره وفكره لكن صعوبات كئودة منعته من تحقيق حلمه آنذاك[1].

وبذلك كانت أولى البعثات العلمية نحو تونس، أي بعد عودة ابن باديس مباشرة إلى أرض الوطن، وكانت بمثابة بداية السيل الذي لم ينقطع حتى الإستقلال، فقد كلل بإنشاء فرعا للزيتونة في الجزائر آلا وهو معهد عبد الحميد بن باديس.

لقد ذاع صيت ابن باديس كرائد للنهضة الجزائرية ومصلح إجتماعي ديني وسياسي فلما زار الزيتونة سنة 1936 أستقبل بحفاوة لم يكن لها نظير لا تليق إلا بالرؤساء والملوك وذوي السلطان، فقد أقيم له حفل في المدرسة الخلدونية حيث ألقى خطابا علميا وسياسيا، وفي الصباح أدرجت أغلب الصحف زيارته إلى تونس ومحاضراته التي ألقاها، من أبرز هذه الصحف صحيفة الأفكار حيث أشادت بعلم الرجل ومناقبه وتأثيره.

فقد كان ابن باديس صحافيا ماهرا وخطيبا بارعا، ومؤرخا ضليعا وسياسيا محنكا، فكان بحق موسوعة شاملة، وقد شرف ابن باديس خلال تلك الزيارة بحفاوة طلبة الزيتونة وأساتذته، حيث أشاد هو في المجلة الزيتونية* قائلا[2]:"يحق لي وأنا تلميذ من تلاميذ الزيتونة أن أغتبط بالمجلة الزيتونية غبطة خاصة ويحق لي وأنا جنديا من جنود الإصلاح الإسلامي العام أن أسر سرورا خاصا".

لقد كان لأبن باديس علاقة وطيدة بالنخبة في الزيتونة رغم أن زيارته كانت محدودة فقد كان مطلعا على أحوال المعهد الذي ظل يخرج الأفواج العلمية الجزائرية التي كان لها الدور

---

[1] محمد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983، ص10.

* المجلة الزيتونية: صدرت سنة 1926، عدد مجلداتها10.

[2] المجلة الزيتونية: الإفتتاحية، م3، ص1.

الإصلاحي والفكري والعلمي وخلال زيارته عام 1937 بمناسبة ذكرى وفاة أستاذه البشير صفر دعي من طرف جمعية الطلبة الجزائريين والجمعية الودادية للجزائريين بتونس[1].

وقد ألقى بهذه المناسبة محاضرة بعنوان "الحركة العلمية والسياسية في الجزئر"حيث كشف ابن باديس فيها عن نظرته الخاصة إذ يعتبر أن هذا الباب صعب الدخول لأنهم يطلبون الاقتصار على العلم وترك مشاكل السياسة، مع أنه لا بد لنا من الجمع بين السياسة والعلم ولا ينهض العلم والدين إلا بنهضة سياسية[2].

وقد كان لهذه الزيارة مغزى سياسي إذ سعى ابن باديس من خلالها إلى توضيح الهم المغاربي المشترك، كما أن هدف المسلمين هو هدف واحد، وكان ينظر للشيخ عبد العزيز الثعالبي على أنه وطني عربي إسلامي، وأن المشاركة في استقبال الثعالبي هي وجه من أوجه الدعم الإعلامي الذي أرادت جمعية العلماء أن تقدمه للثعالبي بعد أن أزيح عن الحزب الذي أنشأه.

والحق أن ابن باديس ظل محترما في الوسط الزيتوني ليس من قبيل حفاوة الإستقبال التي كان يخص بها فحسب وإنما من خلال متابعة أفكاره ودعوته في الجزائر، سواء من خلال الصحافة أو الرسائل، رغم المشاحنات التي كانت تحدث بينه وبين مشايخ الزيتونة في بعض المسائل الفكرية (كالذي حصل بينه وبين الطاهر بن عاشور فيما يتعلق بإصلاح التعليمي الزيتوني)

من كل ما تقدم نتبين أن البيئة الزيتونية هي التي استأثرت بالجانب الأوثق من اهتمامات ابن باديس إذ إليها يعود الفضل في إنجاب هذه الشخصية الإسلامية الفذة.

فإلى الزيتونة يعود الفضل في أخذ العلوم وإعداد أساتذة ودعاة للنهضة، وفي ظلها مدت الجسور، حيث وضعت لبنات الثقافة السياسية وإثارة الأهداف وازدياد الطموحات.

والحق أن ابن باديس كان يدعوا دوما إلى وحدة الوطن العربي وحدة الأمة وكان يعتبر أن الجزائر هي وطنه الصغير لذلك فإن الأوساط العلمية في تونس رأت في نهجه حركة لإسترداد المقومات المسلوبة التي عمل الإستعمار بكل جهوده من أجل طمسها ووأدها

---

[1] محمد صالح الجابري: مرجع سابق، ص85

[2] محمد صالح الجابري: مرجع نفسه ، ص85.

وبفضل تلك السنة التي سنها ابن باديس في مد الجسور بين الشعبين من خلال تلك البعثات التي استمرت أكثر من نصف قرن، إنما يكون قد قطع الطريق أمام المحتل الذي سعى إلى بتر الأوشاج والأواصر.

بذلك كانت الزيتونة حلقة للتواصل الثقافي والعلمي والسياسي بين البلدين وكانت عنصرا فاعلا في بناء الوحدة رغم سياسة فرق تسد التي انتهجها الاستعمار وقد تأكد التآزر والإحساس بنفس الآلام والآمال خلال الثورتين (التونسية والجزائرية) وظل ذلك قائما حتى استرجع البلدان استقلالهما.

دور الرواد المصلحون الزيتونيون في مجالات الحياة المختلفة

الحق أن دور خريجي الزيتونة من الجزائريين لم يقتصر على جانب واحد فحسب وإنما شمل جميع جوانب الحياة العلمية والفكرية والسياسية والاجتماعية، لاسيما في العقود الأولى من القرن العشرين حيث تبلور الفكر السياسي وتزايد نشاط حركة المقاومة، خاصة بعد الدور الخطير الذي قام به الاستعمار لمسخ الهوية الوطنية وتجنيس الجزائريين ونظرا للدور الخطر الذي قام به الاستعمار لمسخ الثقافة الوطنية وتجنيس الجزائريين.

ويبدو واضحا أن نشاط خريجي الزيتونة الجزائريين لم يكن في وطنهم فحسب بل تجلى أول في تونس في جميع أنشطة الحياة فكثير من الزيتونيين الجزائريين من بقي في تونس كمدرس أو واعظ أو حتى مصلح، ومنهم من برع في الشعر فذاع صيته في الربوع التونسية.

أولا: دورهم في المجال الصحفي

إن من أكثر الجوانب التي برع فيه الجزائريون في تونس هي الصحافة حيث صار لبعضهم أعمدة خاصة يشكون فيها همومهم ويطرحون قضاياهم، وبذلك عرف القراء الكثير منهم حتى صاروا مألوفين خصوصا في جرأتهم في طرح بعض القضايا الحساسة التي كانت تثير حفيظة المستعمر، ولعل الدافع الكبير الذي جعل هؤلاء يكتبون في الصحف التونسية أنها كانت تلقى نوعا من الحرية مقابل الكبت تارة، والمصادرة تارة أخرى، للصحف الجزائرية، فالمعروف أن الاحتلال لم يعامل الصحافة في تونس والجزائر بنفس الكيفية، ونسوق هنا أمثلة ممن اشتهروا في هذا المجال:

فرسائل الطيب العقبي إلى جريدة (العصر الجديد) الصادرة بمدينة صفاقس جنوب تونس 1922 وهي رسائل وان لم تنطوي على موضوعات وقضايا سياسية إلا أنها كانت تقدم صورة يومية عن الوضع الإجتماعي والسياسي في الجزائر. وعلى نفس النسق درجت (جريدة النهضة التونسية) سنة 1925 حيث كان يراسلها السعيد الزاهري، الذي صور ما يجري في الجزائر على مستوى القوانين والتشريعات والصراعات السياسية والانتخابات.

وفي إحدى هذه الرسائل دعوة حارة وواعية إلى وجوب الإسراع بالوحدة المغاربة "التي من شأنها أن تبلور الإرادة الجماعية والكفاح المشترك والتصميم الموحد لأبناء المغرب العربي على مقاومة الاستعمار الذي جثم على أرضهم ذات السبغة الجغرافية والتاريخية الواحدة، ثم هناك رسائل أبي اليقضان التي كانت تعنون ب (الرسائل الجزائرية) وقد اهتم الجزائريون عادة بالتضامن والإتحاد والإقبال على العلم والإخلاص للوطن والقيام على خدمته".

كما أكدت هذه الرسائل على الشخصية الجزائرية وإعادة البعث ومخاطبة الضمير والنخبة المتعلمة من طلبة الزيتونة وتوجيه النص لهم، وتبصيرهم بما ينتظرهم من واجبات تجاه الجزائر.

يقول أبو اليقظان في جريدة المنير [*]: "إذا أردت أن تعرف مستقبل أمة من الأمم فانظر إلى حالة أبنائها فان كانوا منشغلين بأن ينالوا العلوم والمعارف، آخذين بأهداف التربية الفاضلة والتهذيب، فأجزم بأن مستقبل أمتهم يكون زاهرا وسعيدا... فالأمة وأبناؤها كالفلاح وأرضه"[1].

ثانيا: دورهم في الأدب والشعر:

إن أكثر المتخرجين من جامع الزيتونة كانوا أدباء وشعراء إلا أن بعضهم فاقت شهرتهم حدود تونس والجزائر، فالشاعر محمد العربي الذي أقام في تونس واحتك بكثير من شعرائها وأدبائها خصوصا أبو القاسم الشابي ونظرا لدوره أوكلت له مهمة إصدار جريدة صبره [**] التي انتهجت خطا وطنيا متشددا وتصدت للسلطة بالانتقاد، كما نشرت عددا من المقالات التي تعالج الأوضاع السياسية بالجزائر وورثه مفدي زكريا باسمه المستعار (ابن تومرت) إلزاما للصداقة

---

[*] المنير: صحيفة عامة إسلامية، صدرت سنة 1907 (الأعداد من 1 إلى 12) وفي سنة 1922 صدرت الأعداد من 53 إلى 66 بتونس (مركز الدوريات تونس)

[1] جريدة المنير: تونس 29 جانفي 1921.

[**] جريدة صدرت في عام 1938، اهتمت بقضايا الأدب والشعر بتونس (مركز الدوريات تونس)

التي كانت تربط بينهما، وقد تجاوب مع كل الأحداث والوقائع التي كانت تحصل، فكان يخلدها بقصائده الشعرية"[1] ونفس التوجه سلكه محمد الأخضر السائحي المساند للقضية التونسية.

لقد ساهمت الحركة الوطنية التونسية في إعداد هؤلاء الطلبة إعدادا سياسيا ثوريا وملأت نفوسهم بالحماس والنخوة منذ اندلاع ثورة تونس سنة 1952 فتأهبوا لاستقبال غرة نوفمبر وهم على استعداد للالتحام بثورتهم".

ومن الأمثلة التي تبين دور الطلبة الزيتونيون في هذا اللون من الفكر، عبد الله شريط وهو من طلبة الزيتونة كرس قلمه من اجل الدفاع عن الثورة والتبشير بها ومناهضة أراء خصومها، يقول في هذا لباب: "الثورة في مفاهيمها الحتمية هي النجاح الاجتماعي والأساس العام لا الانتصار العسكري وحده"[2].

والمعروف أن الأستاذ شريط ساهم مساهمة كبير في كتابة مجموعة من المقالات السياسية والوطنية بجريدة (الصباح التونسية)، وكان له عنوان قار باسم (مارأيك؟) حيث اختص بمعالجة الشؤون الجزائرية والتونسية والعربية، وفي نفس الجريدة كان يكتب محمد مبارك الميلي إذ كان من المحررين البارزين فيها، ومن القضايا التي كانت تشغله الصراع مع المحتل، وتلميع القضية الجزائرية وإلى جانب هؤلاء نذكر يحيى بوعزيز، عبد الرحمن شيبان، عبد الله الركيبي، الجنيدي خليفة وغيرهم كثير.

وقد عمد الأدباء الجزائريون إلى إظهار البطولات والملحمات التي قادها المقاومون أمثال الأمير عبد القادر والمقراني، والأمير خالد، وعبد الحميد بن باديس"[3].

والحق أن العقد الثالث من القرن العشرين قد حمل فعلا بشائر التغيير لصالح حركة الإصلاح والتجديد، لاسيما في ظل تبلور النظام السياسي لنشاط الحركة الوطنية باتجاهاتها المتنوعة والتي كانت تقارع الاحتلال معتمدة وسائلها وأساليبها الخاصة.

---

[1] "قصيدة إلى أعداء العدالة"، جريدة العمل، فيفري، تونس ت د: 1930.
[2] مجلة الفكر: نوفمبر 1957.
[3] محمد صالح الجابري: المرجع السابق، عن جريدة الصباح 1957، ص334.

وبذلك عرف النصف الأول من القرن العشرين نشاطا وطنيا زاخرا في تونس لم يتوقف عند التعريف بالقضية الجزائرية وعرض الحلول في ظل السيطرة الاستعمارية بل أن نشاطهم كان مؤيدا وداعما للحركات الوطنية المغاربية.

في نفس الوقت كانت الحركة الإصلاحية التونسية بزعامة عبد العزيز الثعالبي تؤدي دورا سياسيا ووطنيا لاسيما من خلال الحزب الدستوري الذي تجمع فيه أغلب الزيتونيين التونسيين والجزائريين المناهضين للوضع السائد، مطالبين بضرورة الإصلاح الشامل.

وقد كانت هذه المرحلة تستوجب هذا التوجه فكان من الضروري على الأمة المغاربية أن توحد نهجها وان تتحد فيما بينها لأن العدو مشترك والهموم واحدة لذلك فان الصياغة الأدبية أو الشعرية للجزائيين في تونس قد اتجهت هذا الاتجاه، فمن الزيتونة تخرج الأدباء الذين اهتموا بصناعة القضايا التي تخدم الوطن لاسيما مسألة التحرر، فالكتابات التي تركها عبد الله الركيبي * وأبو العيد دودو ** وابن هدوقة والجنيدي خليفة هي من أحسن الإنتاج في هذا المجال الذي كان يعبر عن توجه الأمة واهتماماتها وهمومها، وفي الجانب الفكري غصت الساحة الجزائرية والتونسية بجموع ممن تخرجوا من المعهد حيث تناولت كتاباتهم الجانب السياسي والاجتماعي الملح والثقافي، وقد صارت هذه الأفكار [1] روحا لثورة التحرير الكبرى، إلى جانب الدور الذي قام به الشيخ بن باديس رائد النهضة ومبارك الميلي وممن جاء بعدهم من أمثال أبو القاسم سعد الله ومولود قاسم وعمار طالبي.

يقول أحد أبناء الزيتونة وهو صالح خرفي[2]: "لو أعطينا الأولوية للبيئة العلمية التي تخرجت فيه الطليعة لجاءت تونس في الدرجة الأولى، ففي جامع الزيتونة درس وتخرج أغلب شعرائها الأوائل"

والحق أن الشاعر الجزائري في تونس لم يكتف بدور الطالب وإنما ساهم مساهمة فعالة.

---

* عبد الله الركيبي: 1932، على قيد الحياة، أستاذ وأديب ودبلوماسي جزائري من ولاية باتنة، التحق بجامع الزيتونة، وبعد أن أتم دراسته انتقل إلى جامعة القاهرة، كلية الآداب، تولى بعد الإستقلال التدريس بجامعة الجزائر، ثم عين سفيرا في سوريا، له آثار كثيرة في الأدب أبرزها وأهمها أحاديث في الأدب والثقافة، نفوس ثائرة (بوصفصاف وآخرون، مرجع سابق، ج2، ص128).

** 1934-2004، قاص جزائري وناقد أدبيومترجم كبير من ولاية جيجل، درس بمعهد عبد الحميد بن باديس، ثم انتقل إلى جامع الزيتونة ومنها إلى بغداد فالنمسا، حيث تحصل على دكتوراه في الأدب، درس هناك ليعود بعد ذلك إلى الجزائر، حيث اشتغل أستاذا بجامعة الجزائر، من أعماله بحيرة الزيتون، الطعام والعيون، كتب وشخصيات (المرجع نفسه، ج2، ص1).

[1] محمد الصالح الجابري: مرجع سابق، ص 51،50.

[2] صالح خرفي: شعراء من الجزائر،ج1، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة: 1969، ص30.

ولذلك ظل معهد الزيتونة في كتابات الجزائريين وفي أشعارهم عرفانا بالجميل الذي أخذه الطلبة من هذا الصرح الراسخ، في وقت كان التعلم بالحرف العربي بالجزائر ممنوعا وعسيرا.

والظاهر أن هذه الطلائع في ميدان الفكر والأدب هي التي أرست قواعد الثقافة الجديدة في الجزائر، كما وضعت اللبنات الأولى للمعاهد التعليمية التي انتشرت في كل القرى والمدن، حيث ظل صوت هؤلاء الرواد مسموعا وعاليا في ربوع الوطن.

بعد هذا العرض السريع يمكن القول أن مثقفي الجزائر في تونس اللذين درسوا بمعاهدها قد تفوقوا حتى على بعض التونسيين وأثبتوا جدارتهم، ولعل غربتهم هاته هي التي جعلت آمالهم تعظم و تزايد إحساسهم بضرورة مضاعفة الجهد لتحصيل النتائج، وكما قال جمال الدين الأفغاني (إن الأزمة تلد الهمة ولا يتسع الأمر إل إذا ضاق).

ثالثا: المجال العلمي

لم يكن هدف الطلبة الجزائريين في المعاهد التونسية والزيتونية بالخصوص من أجل تلقي الدروس وتحصيل الشهادات ليعودوا مدرسين ومعلمين فحسب وإنما كان لهم نشاطا بارزا في جميع مجالات الحياة الأخرى، حتى عدت تونس خاصة في فترة الثلاثينات الوطن الثاني بحق، وكان انخراط الجزائريين الزيتونيين في الأندية والأحزاب والجمعيات السياسية والأدبية دليل على التفاعل الحقيقي بين الشعبين الجزائري والتونسي، وقد كان لهذا التوجه تأثير واضح في إعدادهم العلمي والسياسي والوطني تمهيدا للقيام بالدور الذي ينتظرهم وقد أدت عدة عوامل إلى ظهور هذه الهياكل الجماعية من النشاطات المختلفة أبرزها:

1- تزايد عدد الطلبة بتونس خصوصا في فترة الثلاثينات، حيث كان لزاما على توجيه هذه الأعداد وتوحيد تصورها الفكري والمذهبي وإطلاعها على المهمة الأساسية التي تنتظرها.

2- قيام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931 والتي تجاوزت أعمالها وشهرتها الحدود الجزائرية إلى البلاد العربية الأخرى وفي مقدمته تونس والمغرب، وكان لها الفضل في وضع فاصلة للعمل الفردي وتوجهها نحو العمل الجماعي المنظم، والخروج من المساجد إلى المنابر الأخرى الأكثر سعة ومزاحمة التوجهات المتواجدة في الساحة في ظل التحولات العالمية الكبرى.

3- النشاط المتميز الذي كان لطلبة شمال إفريقيا بفرنسا، فالمؤتمرات التي عقدتها كان لها الأثر الكبير على الحركة الطلابية في تونس من حيث جمع شملها واستمرار عملها.

4- التحولات العالمية التي برزت بعد الحرب العالمية الأولى خاصة توسع نشاط الأحزاب اليسارية، ونفوذ الصحافة والإعلام، وقد زاد هذا من وعي هذه الطبقة الأكثر إطلاعا على أحوال الأمم.

نتيجة لهذه العوامل ظهرت جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين، والتي كان لها دور مهم في الاهتمام بالطالب الجزائري وتحصينه، فصار العمل الطلابي يأخذ صبغة جماعية وصاروا أكثر وعيا بما يجري في الساحة السياسية والاجتماعية فيما يتعلق بالجزائر خاصة.

ظهور جمعية الطلبة الزيتونيين كانت نتيجة للدور الفعال الذي قام به الشيخ البشير الإبراهيمي الذي كان يلح على هيكلة العمل وتجنيد الفئة المثقفة لمواجهة الواقع المأسوي وفي إحدى زياراته إلى تونس وبإحدى مساجدها دعا صراحة إلى تكتيل الصفوف والتلاحم، والخروج بقضيتهم وقضية شعبه من الطور السلبي إلى طور العمل المجدي، وضرورة تبصير الشعب التونسي وغيره من شعوب العالم العربي والإسلامي بعمق المأساة التي يعيشها الشعب الجزائري المحكوم عليه بمبارحة الأوطان هربا من التعسف[1].

كما دعا الإبراهيمي الطلبة بتونس إلى ضرورة التعريف بقضيتهم من خلال الصحافة والنوادي، وفي هذا الإطار جاءت فكرة إنشاء هذه الجمعية حيث تم اختيار الشيخ البجائي رئيسا لها ثم أنتخب الشاذلي المكي فيما بعد، أما الرئاسة الشرفية فقد أوكلت إلى المختار بن محمد[*].

وفي عهد الشاذلي المكي تمكنت هذه الجمعية من إرساء القواعد العامة للعمل في تونس ومد جسورها إلى الجزائر فقد أهتمت بـــ:

- إعداد الطالب من الناحية الأدبية والخطابية.
- التعريف بالواقع الجزائري وسياسة الإستعمار.
- الدعوة إلى المعرفة والعلم كأحسن سبيل يمكن من التغلب على صعوبات الدهر.

---

[1] محمد الصالح الجابري: المرجع السابق –ص102

[*] مختار بن محمد: عالم من علماء الزيتونة بتونس.

والحق أن هذا الأسلوب هو الأسلوب نفسه الذي أعتمد في إعداد الطلبة التونسيين لاسيما في إنشاء جمعيات الطلبة والنوادي الأدبية والفكرية والتي كان توجهها سياسيا بسبب الوضع الذي عاشته تونس (الحماية الفرنسية).

وبفضل العمل الجاد والجدية اللا متناهية تمكنت الجمعية أن تقطع شوطا معتبرا في إعداد رجال المستقبل وإنشاء الجيل النافع الذي يكون بمثابة الدواء الشافي للمرض الذي أنتشر في صفوف الكثير من الجزائريين خاصة الأميين بفعل أعمال الطرقية والدجالين الذين كانوا يخدموا الإستعمار بشتى الوسائل، فقد كانت الحاجة ماسة لبناء جيل قادر على مقارعة العدو متمكنا من إقامة الحجة عارفا بالمحيط.

والحق أن الجمعية كانت تهيئ طلابها لعمل سياسي أكثر منه أدبيا وكنتيجة لشدة الارتباط الذي كان بين الجمعية الطلابية وجمعية العلماء فقد زار ابن باديس تونس بين 1936 و1937 ثلاث مرات[1] وكانت محاضرته التي ألقاها تحليلا للوضع العملي والسياسي والإجتماعي في الجزائر.

ومن أثار الجمعية في تونس إصدارها نشرية خاصة عرفت بالثمرة الأولى * وقد تضمنت النشرية رصد الأحداث الهامة وإحياء للذكريات الخالدة لتاريخ الأمة، شارك في هذا الإصدار مصلحون كبار وعلماء بارزون من تونس والجزائر، كما اهتمت بالمقال الأدبي والسياسي تشجيعا للمواهب، والملفت أن الثمرة الأولى اهتمت بموضوع الهجرة النبوية لما يحمله هذا الموضوع من واقع على حياة الثلة من هذا النشأ.

وعلى غرار ابن باديس الذي شرف بالحضور إلى الجمعية وإلقاء كلمة بمناسبة الاحتفال بالهجرة فهناك علماء الإصلاح الذين راسلوا الجمعية كأبي يعلى الزواوي وعلي رحومة ومفدي زكرياء وغيرهم.

إن ظهور الجمعية عام 1936 كان نتاجا للعمل الذي قام به رواد الإصلاح في تونس، فهي تنظيم ديني وسياسي واضح الغايات لذلك طالبت جمعية الطلبة من جمعية العلماء صراحة أن

---

[1] محمد صالح الجابري: مرجع سابق، ص107.
* الثمرة الأولى: نشرية صدرت في سنة 1937 بتونس، مطبعة الشهاب.

تعيرهم اهتماما وعناية لأن الطلبة هم مادتها الأولية وناصروها الأوفياء، وهم الذين ينشرون مبادئها ويرفعون لوائها عاليا[1].

كما جاء في بيانها أنهم ردف لجمعية العلماء المسلمين معلنين بذلك عن الأهداف الوطنية والقومية والسياسية.

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عادت الجمعية للظهور مرة أخرى وبدور أكثر خصوبة تزعمها في هذه الفترة أحمد بروج وأوكلت مهمة الرئاسة الشرفية للطاهر بن عاشور رئيس الجامع الأعظم لتؤول الرئاسة بعد ذلك لعبد الرحمان شيبان ثم معمر مرازقة عام 1947، في ذلك الوقت أصدرت الثمرة الثانية التي تضمنت مقالات أدبية وقصائد شعرية ومقالات سياسية وفي هذا الظهور الجديد، استحدثت الجمعية مقرا خاصا لإسكان الطلبة ومكتبة لهم، للتعبير عن التلاحم الوطني، وقد فضلت الجمعية بمناسبة صدور الثمرة الثانية أن تعطي كلمة الافتتاح لمصالي الحاج ومما جاء قوله:[2] "فالشبيبة الجزائرية التي ستصبح في مستقبل الزمن نخبة البلاد، ينبغي لها أن تصنع أداة كفاحها وهي على مقاعد المدارس والكليات".

وخلال الأربعينيات صارت النبرة السياسية واضحة لدى الطلبة وصار التوجه نحو الإستقلال ضرورة ملحة في ضل التقلبات العالمية وسياسة المحتل ويبدوا أن الحس القومي العربي الإسلامي كان واضحا، كما أن النظرة المغاربية كانت ماثلة في مشوار الطلبة الجزائريين، هذا ما تأكده الخطابات والمقالات التي كانت تلقى وتصدر في تونس.

من هنا نستنتج أن التضييق الذي مارسه الإستعمار على النخبة المثقفة الجزائرية في الداخل لم يزدها إلا تصلبا وإصرارا على مواصلة الدرب، وبذلك صارت دار الهجرة سواء في تونس والمشرق وحتى في فرنسا التي ضمت دعاء الاستقلال أرضية صلبة للمقاومة والنضال.

---

[1] البصائر: نوفمبر 1936، عدد44 –ص353.

[2] الثمرة الثانية: مركز الدوريات، تونس 1947، ص8.

رابعا: في المجال السياسي

يمكن تقسيم دور الطلبة الجزائريين في تونس إلى ثلاث مراحل متميزة منذ مطلع القرن العشرين حتى اندلاع الثورة التحريرية الكبرى، وعلى الرغم من أن الجزائريين كانوا مغتربين إلا أنهم وجدوا الأرضية الصلبة لعمل وطني سياسي كان أكثر توحيدا وأكثر منهجية، على غرار عمل المهاجرين في أوروبا وبالضبط في فرنسا، بذلك فإن دار الهجرة سواء أكانت فرنسا أو تونس كانت منطلقا حقيقيا للتحرير الذي توج عام 1954 بثورة عارمة وإن تفرقت الأجساد واختلفت الوسائل فالحقيقة أن الدوافع والأهداف كانت واحدة.

فالمرحلة الأولى تميزت بإبراز رأي المهاجرين في الإستعمار وحقيقته من خلال عدم الرضا خصوصا سياسته التي تميزت بالإستعباد والإبادة وآلت بالأمة إلى وضع سيء، قد أمكن للجزائريين إستغلال أبسط الإمكانات التي أتيحت لهم في ذلك الوقت كالجرائد والمجلات والخطابة ويصدق هذا كثيرا على ابن عمر وصالح بن يحي وعمر راسم، وكلهم كانوا من الأوائل الذين وضعوا أسس العمل السياسي في تونس ولو بطريقة إيحائية لطبيعة الظروف الدولية آنذاك.

أما المرحلة الثانية فقد تميزت بالمواجهة الحقيقية خصوصا بعد أن انضوى بعض الجزائريون تحت رايات الجمعيات السياسية التونسية ولم يكتفوا بأن كانوا أعضاء ثانويين بل كانوا روادا في الحركة السياسية التونسية وأبدوا شجاعة ونباغة فريدة، ربما فاقت الوطنيين التونسيين، وهذا ما جعلهم عرضة لمطاردة المحتل لهم فلاحقهم تارة بالسجن وتارة بالنفي والاعتقال وحتى الاغتيال.

وفي المرحلة الثالثة والتي تجلت بوضوح في الخمسينات عندما اندمج الوطنيون سواء في تونس أو الجزائر في الكفاح المسلح كآخر محطة للنضال المغاربي، وقد كان للجزائريين الزيتونيين دورا أساسيا في الثورة التحريرية والتعريف بقضية الأمة، ورسم مستقبل الجزائر الفكري والقومي والإسلامي بعد الإستقلال.

فالثابت تاريخيا أن كثيرا من العلماء ومن أبناء الجمعية كانوا وقودا لهذه الثورة والشهادات على ذلك لا تعد ولا تحصى من هاته الشموع التي أحترقت من اجل إستمرار الثورة، من أبرزهم عمر بن قدور، إبراهيم أطفيش، العربي تبسي، رضا حوحو، عمر راسم وغيرهم كثير.

المرحلة الأولى: في هذه المرحلة طرحت القضايا التي كانت أكثر إلحاحا على الواقع الجزائري خاصة منها قضية التجنيد الإجباري، وانعكاس ذلك على الأهالي الذين لم يهضموا هذه القرارات وفضلوا هجرة الوطن سواء إلى أماكن نائية أو إلى أوطان أخرى، كما طرحت قضية انتماء الأمة الجزائرية، حيث دأب المحتل على التشكيك في أصول هذه الأمة وانتمائها لذا قام الرواد المصلحون للدفاع عن هوية وشخصية الأمة الجزائرية على أنها عربية إسلامية تختلف تماما عن الغزاة الذين فرضوا أنفسهم بمنطق القوة والغلبة، كما طرحت في هذه المرحلة مسألة الصمود والدعوة إلى التمسك بالمقومات.

طرحت كل هذه القضايا في ثنايا الصحف التونسي وبعض الصحف الجزائرية التي كانت تصدر آنذاك وغالبا ما كان الاحتلال يسرع إلى مصادرتها أو توقيفها، بذلك تكون حركة الإصلاح والتجديد من أول من فتح النار على الإستعمار بطريق مباشرة، وعلى رأي محمد صالح الجابري أنهم هم أول من وضع أمام القارئ العربي عامة والجزائري خاصة الحقائق وتصدى لمعالجتها بآناة وصبر)[1].

وقد أسرع المستعمر لإخماد صوت الصحافة الوطنية التونسية باعتبارها أصبحت مجالا هاما يسمع من خلاله صوت الجزائر، فتعرضت تلك الأقلام والكتابات للتوقيف ونفي أصحابها والتنكيل ببعضهم أحيانا سعيا منها لقتل روح الجرأة وكبت هذه النداءات هكذا أصبح الوضع لدى عمر بن قدور وعمر راسم.

فقد خاطب عمر راسم من خلال جريدة "التقدم"* رئيس وزراء فرنسا ووزير حربيته والوالي العام يقترح عليهم فيما يخص التجنيد الإجباري للمسلمين الجزائريين ومما جاء في الرسالة: "فلا يمكن لهذه الأمة أن تجبر على حمل السلاح إلا بعد نشر مصابيح العلم النافع بين أفرادها لتضيء أفكارهم"[2].

وفي نفس الجريدة من عام 1908 نشر مقالا تحت عنوان "كلهم علينا يهود" أطلع القارئين من خلال الصحيفة على دور اليهود في المنطقة والدسائس والخبث الذي يدبرونه للأهالي.

---

[1] محمد صالح الجابري: المرجع السابق –ص225

* جريدة يومية وطنية تونسية شعارها واعتصموا بحبل الله ولا تفرقوا تأسست في 1325هـ، مديرها البشير الفورتي ورئيس تحريرها محمد الجعيبي، ثمنها 5سنتيم داخل تونس.

[2] عمر بن قدور: جريدة التقدم، 26 ديسمبر 1907.

وقد توالت رسائل عمر بن قدور فيما يتعلق بتجنيد المسلمين، حتى أن المستوطنين كانوا يعتبرون مسألة التجنيد خطر عليهم.

والحق أن عمر بن قدور يمثل نموذجا من النماذج الفريدة التي عرفتها الصحافة التونسية حيث أعطى دروسا في الوطنية الحقيقية من خلال مقالاته في الصحافة وجرأته النادرة في قول الحق.

المرحلة الثانية:

ولأن الظروف التي حكمت المهاجرين الجزائريين بتونس لم تكن تسمح لهم بأي عمل سياسي مباشر، وحتى إبداء أي معارضة اتجاه فرنسا، فقد لجؤو ا إلى الالتحام بالأحزاب الوطنية التونسية والانضواء تحت لوائها فاكتسبت بذلك طابعا مغاربيا، الهدف منه هو محاربة المستعمر وإيجاد نقطة انطلاق للتصدي له، وفي هذا السياق أقدم عدد من الجزائريين للانخراط في الحزب الدستوري 1920، ومن أبرز من أحترف السياسة هناك، إبراهيم أطفيش، صالح بن يحي، إبراهيم بن حاج بن عيسى، توفيق المدني، عبد الرحمان يعلاوي، الطيب بن عيسى، السعيد الزاهري.

إضافة إلى كل هؤلاء هناك عناصر فاعلة كانت قائدة في الحزب تعود كذلك في أصولها إلى الجزائر، أمثال عبد العزيز الثعالبي، الصادق الرزقي، حسين الجزائري. ومن هنا يتبين أن إقبال الجزائريين على الانخراط السياسي ومن الزيتونيين خاصة مرده إلى ذلك الحرمان الذي مورس في الجزائر على أصحاب الرأي والقلم والموهبة، ثم أن هذا النشاط هو فرصة لتفجير الطاقات الكامنة، وإن تعذر قول الحق ومجابهة الإحتلال إلا من خلال حزب وطني تونسي ما دام أن ظروف وجود أحزاب في الجزائر ظل محظورا ومحفوفا بالمخاطر.

كما يؤكد هذا التوجه مدا الترابط بين الجزائر وتونس، خصوصا من قبل سكان وادي ميزاب الذين وضعوا كل إمكاناتهم المادية والمعنوية من أجل نصرة الحزب الدستوري، حتى وإن كانت زعامة الحزب بقيادة عبد العزيز الثعالبي الجزائري، دافع لتوافد الجزائريين على الحزب[1].

وعلى رأي توفيق المدني فقضية بلاد وادي ميزاب من هذه الناحية هي نفس قضية تونس، وأحرار تونس على حقها لفتح الباب لأحرار ميزاب على ما ضمنته لها المعاهدة[2].

---

[1] ابن باديس: "الأصول الجزائرية للشيخ الثعالبي"، مجلة الشهاب م6، ج8، سنة 1937، ص37.

[2] احمد توفيق المدني: حياة كفاح، مذكرات، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1975، ص157.

وحتى وإن لم يجهر الجزائريون المنطوون تحت الحزب الدستوري الحر واعتبروا أن قضيتهم الأساسية هي القضية التونسية، مؤجلين المسألة الجزائرية إلى وقت آخر، وهذا حتى لا يتعرض الحزب للحل والملاحقة، إلا أن عيون المستعمر أدركت بعد مدة ليست بطويلة أن الغرض الأساسي من انضمام الجزائريين إلى المعارضة التونسي وربط مصيرهم بمصيرها هو إضفاء الصبغة المغاربية على المطالب السياسية التي ينادي بها الحزب الدستوري، وإحياء الجبهة القديمة التي جمعت المناهضين التونسيين والجزائريين في جبهة واحدة، التي خطها التونسي محمد باشا حانبة مع ثلة من الجزائريين أثناء إقامته بسويسرا سنة 1916، وحتى وإن لم يعلن هؤلاء المناضلون عن مطالبهم فإنهم عملوا على سياسة نضالية ذات حدين، أحدهما يقوم على مبدأ الإنخراط في الحزب التونسي والإستفادة من الشرعية التي يتمتع بها بغية تحريك الإتجاهات المتعاطفة مع قضية الجزائر، أما الثاني فالهدف منه هو بلورة الأراء والمطامح الوطنية الجزائرية في مقالات سياسية وأدبية وشعر وطني شديد الحماسة.

ولما كانت أيدي الإستعمار طويلة مثل الحال في الجزائر فقد أدركت الخطر الذي صار يهدد كيانها وعرفت مدى فاعلية العنصر الجزائري في تونس خاصة الناشطين في وادي ميزاب لذلك أقدمت على توقيف إبراهيم أطفيش ثم إبعاده تماما فأختار القاهرة كمنفى وظل هناك حتى وفاه الأجل عام 1965، واعتقدت السلطة في تونس أنها بإبعاده تكون قد أزاحت الرجل الذي كان يسبب لها متاعب في الجزائر وتونس نظرا للسلطة الروحية على أبناء الجالية الجزائرية في تونس.

أدرج المحتل كذلك شخصية أعتبرها من أخطر المناهضين له وهو الشيخ صالح بن يحي [*] ذا الصلة الشديدة بتجار تونس وبالحركة السياسية، فكان يمد حزب الدستور بالمال كلما أحتاج له وكان يجمع التبرعات لصالح الحزب وقد أنفق أمواله كلها ومات فقيرا[1].

وقد أعطانا أحمد توفيق المدني صورة حية عن الشيخ صالح بن يحي كأحد رواد الحركة السياسية التونسية إذ يقول: "إن بن يحي كان على جانب وافر من الوطنية والإخلاص ورفعة

---

[*] صالح بن يحي: توفي سنة 1948، عالم اباضي ولد ببني يزقن بغرداية، أخذ العلوم على أيدي العلامة محمد بن يوسف اطفيش وغيره من علماء المنطقة، انتقل إلى تونس حيث زاول تعليمه بجامع الزيتونة، استقر هناك، حيث اشتغل بالتجارة، كان من الأعضاء البارزين في الحزب الدستوري بزعامة عبد العزيز الثعالبي، وقد توفي بتونس (بوصفصاف وآخرون: مرجع سابق، ج1، ص138).

[1] محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، مطبعة البعث، قسنطينة: 1978، ج2، ص39.

النفس... فقد كان ملكا في صور إنسان، ما عرفت في حياتي رجلا مؤمنا كإيمانه، فاضلا كفضله، متواضعا كتواضعه، مجاهدا كجهاده، له وجه مشرق فتراه بنور الجلال والوقار وله شعاع من الإيمان واليقين، كان كلامه حكمة وعمله جهاد ومبتغاه نافعا لعمل الإسلام"[1].

إلى جانب اطفيش والشيخ صالح بن يحي، فقد أبعدت الإدارة الفرنسية أحمد توفيق المدني وعبد الرحمان اليعلاوي وذلك سنة 1925، وكانت دوما التهمة واحدة هي أن هؤلاء هم من أصول جزائرية، انخرطوا في حزب سياسي تونسي، ولعل هذه القرارات والسلوكيات التي أعتمدها السلطة كان لها ما يبررها لأن الضفة الأخرى من البحر المتوسط كانت الأمور لا تسير في صالحها، وأن حركة الجزائريين بدأت تتضافر ويتزايد نشاطها.

كل هذه الأحداث جعلت المحتل يلجأ إلى إبعاد هؤلاء من أجل قطع صلتهم بالعالم الخارجي، كما أن هذه الفترة شهدت ثورة الريف بزعامة عبد الكريم الخطابي، وإن لم يكن ذلك تنسيقا واضحا إلا أن المستعمر كان يشتم رائحة التآمر من حوله، وإذا كانت اليوم في المغرب، فإنها ستكون غدا في تونس وستنتقل حتما عدوى الانتفاضة إلى الجزائر، هذا ما جعل فرنسا تسرع إلى قطع كل الجسور المؤدية إلى هذه النتائج التي لا تريدها أن تقع.

وقد جاء في مقال لتوفيق المدني في جريدة "إفريقيا" بعنوان "ليحيا الريف حرا مستقلا" أبدى تعاطفا مباشرا وتأييدا لقضية الريف دون خجل أو خوف حيث جاء في قوله: "نحن لا نتمنى الحرب ولا نرضى ضياع الأنس، ولا ننظر إلا بعين الكدر إلى انهيار مالية فرنسا.. وندرك ما يجري لنا من المضار المختلفة إذا تمددت الحرب، ولكننا في كل ذلك لا يسعنا إلا أن نحبذ عمل من سعى لحرية بلاده ويجاهد لاستقلال أمته ولا نريد إلا أن نرى الريف الباسل حيا عاملا شعبه تحت راية الحرية التامة والاستقلال المفدى"[2].

وقد كلف هذا المقال توفيق المدني الإبعاد إلى الجزائر، وهناك مارس نشاطه ملتفا حول الوطنيين التونسيين والجزائريين.

---

[1] أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص156.
[2] مجلة إفريقيا: مركز الدوريات، تونس: 25 ماي 1925.

ونفس ما تعرض له توفيق المدني حصل مع اليعلاوي الذي سجن ثلاث مرات بسبب أرائه ثم تم إبعاده عن تونس بعدما ثبت من كتاباته التي نشرت في المجلات التونسية خاصة مجلة العرب[1]

يقول في مقال له في هذه المجلة: "لم أدخل المعركة ضد المستعمر إلا بعد أن تعلمت لغته ودرست تاريخه كما درست تاريخ بلادي، بعد ذلك نهضت للكفاح المسلح بالعزم والحق داعيا إلى التعلم وخدمة الأرض بطريقة عصرية، وترك مرابض الكسل والشحناء لأن القوة في الإتحاد"[2].

بهذه الكيفية أنغمس اليعلاوي في العمل السياسي منظما للحزب الدستوري متحديا كل الصعاب المحتملة عارفا بما قد يؤول إليه الأمر، وهذا ما جعل تصريحاته تكون حادة وقاسية على المستعمر الذي لم يحتمله هنيهة وقد كلفه ذلك النفي إلى الجزائر حيث الرقابة مشددة عليه وعلى أمثاله.

والنتيجة أن للزيتونيين دورا سياسيا بارزا حتى وأن بعضهم لم ينخرط مباشرة في الحزب ولم يعلن انتماؤه السياسي.

وعلى نفس الخطى درج سعيد الزاهري الذي كان يكتب في جريدة النهضة وكانت أغلب كتاباته تتعلق بما يصدره المحتل من تشريعات وقوانين تخص المجتمع الجزائري، كما كان يعرض للمسائل السياسية مثل الإنتخابات وكان يدعوا إلى ضرورة الوحدة بين الأمة المغاربية[3].

وكان يرى أن الهم واحد والعدو واحد بل أعلن صراحة عن ضرورة مقاومة الإستعمار الذي جثم على أرض المغرب العربي، هذه الأرض ذات الصبغة الجغرافية الواحدة وذات العناصر الحسية الواحدة، كما أكد على ضرورة الوحدة مبررا مقومات الأمة المغاربية، العرقية واللغوية والحضرية، حتى أن الصحف التي كانت تصدر في تونس على مختلف مسمياتها لا تكاد تعرف إلا الأقلام التي تدفع إلى الوحدة بين هذه البلدان وبذلك فإن الإستعمار بقدر ما كان مفرقا كان موحدا من حيث لا يشعر، يقول الزاهري في جريدة الوزير * موضحا الشعور بالوحدة ونمو الوعي المغاربي:"وإذا تم ذلك وسيتم إن شاء الله سيكون كل مفكر في الجزائر أو تونس أو في مراكش يفكر في المغرب لا بخصوص جهته".

---

[1] مجلة العرب: مقال لليعلاوي، عدد خاص، مركز الدوريات، تونس 1924، ص7.

[2] المصدر نفسه: المكان نفسه.

[3] مجلة الوزير: 21 مارس/4 أفريل 1929.

* الوزير هي نشرة "إسلامية إصلاحية أسبوعية تأسست في رجب 1338هـ الموافق لـ أفريل 1920، صاحب إمتيازها المدير الطيب بن عيسى، شعارها 'إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب' الآية، مركز الدوريات تونس.

خاتمـــة الفصل:

يتضح من خلال ما تقدم أن المهاجرين الجزائريين بذلوا طوال نصف قرن نشاطا وطنيا زاخرا لم يقتصر على التعريف بالقضية الجزائرية ومعالجة أوضاعها في ظل الاستعمار والدفاع عن كيانها المهدد بالضياع ولكنه كان اندماجا في الحركات الوطنية المغربية والحركات التونسية بالخصوص، وإن كان هذا النضال قد بدأ بمقالات بسيطة لعمر راسم وابن قدور فقد تطورت تلك الأعمال إلى حركة سياسية خرجت بهذا الكفاح من طور الملاحظة والتعليق إلى طور المهاجمة، وإذا كان الاستعمار قد شكل طوقا من الحواجز لمنع الجزائرين من العلم فإن العزيمة التي كانت لدى المثقفين ثقافة إسلامية كانت أقوى من إرادة الاحتلال، فلم يتوانى الجزائريون في الانفلات تحت جناح الظلام إلى شتى البقاع رغبة في كسر ذلك الجمود وتلك الإبادة الثقافية، فكانت الزيتونة أن استأثرت بأكبر عدد من المهاجرين ولعل ذلك يعود إلى قرب المنطقة وإلى مكانة الزيتونة كأهم مؤسسة تعليمية بعد أن صدت أبواب المؤسسات التعليمية في الجزائر أمام مريديها.

نستنتج كذلك أن الحركة الإصلاحية التجديدية التي تبلورت في العشرينات من القرن الماضي، قد تشكلت أساسا من نسيج من المثقفين ثقافة إسلامية والذين برزوا في جميع المجالات لاسيما المجال الصحفي والمجال العلمي والسياسي.

ومن المؤكد أن نشاط هؤلاء لم ينعكس على الجزائر فحسب إنما كان أولا في تونس، حيث أبرزوا قدراتهم وخبراتهم فلما أتيحت الفرصة في الجزائر كانوا أحسن من مثل جناح الحركة الوطنية بنضالهم وجهدهم وإخلاصهم.

ولما اندلع لهيب ثورة نوفمبر 1954، هب هؤلاء الرجال للدفاع عن الوطن كل حسب اختصاصه فمنهم أن سخر قلمه فكان نارا ولهيبا على الاستعمار كما فعل مفدي زكرياء صاحب النشيد الوطني الخالد، والذي عرف بشاعر الثورة، والحق أن شعر مفدي زكرياء في تلك الفترة قد وجه كله لخدمتها، فكان بحق ناطقا رسميا باسمها، ومنهم من سخر قلمه للأدب السياسي الذي يخدم القضية الوطنية أمثال رضا حوحو، وبعضهم ألتحق بجيش التحرير الوطني حتى يجسد التضحية في أسمى معانيها.

وبعد الاستقلال أمكن لهؤلاء الرجال أن يتبوءوا مواقع حساسة في جميع مجالات الحياة كالتربية والتعليم والسياسة والإعلام، ولا زال بعضهم يقوم بدوره كما ينبغي.

الفصل الثالث: أثر جامع الزيتونة في حركة الإصلاح والتجديد با لجزائر

أولا: في مجال النهضة وإعادة البعث

ثانيا: في مجال التربية والتعليم

ثالثا: في المجال الديني (محاربة الطرقية)

رابعا: مسألة التجنس

خامسا: قضايا المرأة

سادسا: قضايا الإعلام

خاتمـــة الفصــل

أثر جامع الزيتونة في حركة الإصلاح والتجديد بالجزائر

مما لاشك فيه أن حركة الإصلاح والتجديد بالجزائر، قد تأثرت بشكل أو بأخر بجامع الزيتونة، والحركة العلمية والفكرية هناك، كما أن النخبة الجزائرية التي تخرجت من جامع الزيتونة كان لها أثر على الحركة الإصلاحية في تونس، وهذا منطقي إذا علمنا أن الإنسان بطبعه يؤثر ويتأثر.

ولأن مجالات التأثير متعددة لا نستطيع حصرها بأي حال من الأحوال، فقد حاولت في هذا الفصل أن أقف على أكثر الجوانب التي كان لجامع الزيتونة تأثير فيها على حركة الإصلاح والتجديد الجزائر، والقضايا التي شهدت حراكا بين حركات الإصلاح والتجديد، والحركات المحافظة سواء في الجزائر أو تونس، وحتى في بلاد المشرق، وسنسعى إلى محاول إظهار مواطن التأثير الزيتوني، وفي نفس الوقت نبين هذا التأثير هل كان تقليدا أم محاكاة حرفية؟ أم أن الدعاة الإصلاح الجزائريين تركوا بصماتهم وتقاليدهم وما مدى أثر البيئة التي عاشوا فيها؟ وهل للمؤثرات الخارجية الأخرى تأثير في هذا التوجه؟.

لكل هذه الإعتبارات فسأقف في هذا الفصل على ست مباحث أساسية أراها من جهة أنها الجوانب الأكثر أهمية في تاريخ الحركة الإصلاحية وعلاقتها بالزيتونة، ومن جهة أخرى أرى أن هذه الجوانب قد مست جميع مجالات الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية والأدبية والإعلامية، وهذه المجالات هي:

- مجال النهضة وإعادة البعث ودور حركة الإصلاح والتجديد فيها وما مدى تأثير الوسط الزيتوني.
- مجال التربية والتعليم وعلاقة الزيتونة بحركة الإصلاح والتجديد.
- المجال الديني وذلك من خلال إثارة مسألة محاربة الطرقية من طرف حركة الإصلاح.
- مسألة التجنس وكيف نظر إليها دعاة الإصلاح والتجديد وأثر الزيتونة في ذلك.
- قضايا المرأة عند حركة الإصلاح وأثر جامع الزيتونة.
- القضايا الإعلامية عند حركة الإصلاح وأثر الجامع الأعظم فيها.

أولا: في مجال النهضة وإعادة البعث

– إذا كان الأفغاني يرى أن الإصلاح يجب أن يكون عن طريق السياسة، ويؤمن باستحالة القيام بأي إصلاح قبل مغادرة الأجنبي للبلاد الإسلامية [1]، فإن محمد عبده يرى أن الإصلاح يجب أن يأتي عن طريق الشعب، بأن يتربى تربية صحيحة تساعد على النهوض وتجعله يسير في طريق الإصلاح استعداده له.

في حين أن حركة الإصلاح والتجديد في الجزائر اعتمدت أسلوبا متميزا يقضي بتطهير المجتمع من الإستعمار، ونبذ التخلف ومحاولة مواكبة ركب التحضر، وفي نفس الوقت إعادة الأمة الجزائرية إلى مجدها وقوتها.

لقد كانت نظرة حركة الإصلاح والتجديد نظرة شاملة، فالإصلاح لا يتم في نطاق الماضي والأمجاد العابرة كما طلب بعض دعاة الإصلاح من قبل في الجزائر، غاضين النظر عن التطورات العلمية والتكنولوجية التي يزخر بها ذلك العصر الحاضر وما قد يسفر عنه المستقبل من تطورات عظام، وإنما يدعو إلى الأخذ بالجوانب الإيجابية ، في الماضي لبناء صرح الإصلاح على أساس سليم ثم الاستفادة من علوم العصر وفنونه واقتباس وسائل الحضارة الحديثة من الشعوب المتقدمة بشرط عدم الذوبان فيها أو تقليدها تقليدا أعمى كما فعل الكثيرون ممن بهرتهم أوروبا بحضارتها، وفي هذا يقول ابن باديس [2]: "فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة وطرق المعاشرة والتعامل، كن عصريا في فكرك، وفي عملك وفي تجارتك وفي صناعتك وفي فلاحتك وفي تمدنك ورقيك".

والحق أن السبيل الذي سلكته الحركة الإصلاحية في الجزائر ليس مبتدعا فيه وإنما أخذ من التجارب السابقة القريبة منه والتي كانت نتائجها مفيدة للمجتمع.

فلو نظرنا إلى حركة الإصلاح عند خير الدين باشا الوزير في أواخر القرن التاسع عشر، نلمس أن الخط يكاد يكون واحدا، ففي وقت كانت تونس تعيش التبعية للباب العالي والضغوط الأجنبية والرغبة في النهوض بالداخل، ويتضح هذا في كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، حيث زاوج خير الدين بين شيئين متناقضين نظريا هما، العقلي الليبرالي والشرعي

---

[1] جلول الجريبي: أسس النهضة عند عبد العزيز الثعالبي، رسالة دكتوراه دولة، 1987، 1988، جامعة الزيتونة، تونس: ص118.
[2] عبد الحميد بن باديس: الشهاب، العدد29، السنة الثانية، 23 أوت 1926، ص18.

الديني، فالأمر عنده لا نهضة دون القيام بتنظيمات سياسية وإدارية ولا حرية دون تقييد للسلطة، ويمكن اعتبار فكر خير الدين باشا محاولة للإجابة عن سؤال شغل بال المصلحين وهو كيف نحافظ على مقوماتنا العربية الإسلامية وفي نفس الوقت نعمل على تطوير المجتمع العربي أسوة بالغربي[1].

إن هذا الفكر هو ما صار يعرف بالأصالة والمعاصرة فلا نهضة بدون مواكبة التحولات الجديدة والأخذ بمعاول التقدم خاصة في الجانب التكنولوجي والمدني وفي نفس الوقت المحافظة على العقيدة والأصالة.

والواقع أن حركة خير الدين كانت توافق الاتجاه الإصلاحي الذي تبنته حركة الجامعة الإسلامية لاسيما أفكار محمد عبده الذي تبناها عدد من علماء الجزائر أمثال: المجاوي وابن الموهوب وهو نفس الخط الذي سارت عليه الحركة الإصلاحية التجديدية بقيادة عبد الحميد بن باديس.

فإذا نظرنا إلى ابن باديس وهو يعيد بعث التعليم في الجزائر، ويضع مقوماته الصحيحة لوجدنا لمسات أساتذة الزيتونة واضحة، فلو سقنا النخلي، فقد عمد النخلي إلى إعادة إصاح التعليم الزيتوني وتجديد الفكر الديني والإفادة من مكاسب العصر، كما أصر على تجديد الفكر الديني مما أثار عليه ثائرة الجامدين، ثورتهم على الطاهر بن عاشور ومحمد عبده، وقد واجه ابن باديس المصير نفسه من طرف المصلحين المحافظين[2].

وإذا كان ابن باديس قد واجه المحافظين الجامدين والطرقيين، وجمع كل الوسائل من أجل دحض هذه الأفكار البالية التي لا تزيد إلا في التبعية والانصياع، فالإسلام حسب تعبير النخلي هو دين حرية وعقل، ولذلك يرد على الجامدين في عصره حيث يقول: "أولئك الذين أقاموا مفارقة بين العقل والنقل واعتبروا الاهتداء بالعقل مروقا والالتزام بالمروث تدينا والإيمان بحرية الفكر ظلالا، والتعلق بالمشعوذين رشادا وخلطوا بين الدين والفكر وجردوا سيف التضليل والتكفير لمقاومة المصلحين3.

---

[1] د. عميراوي حميدة: دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة: ديسمبر 1999، 101.
[2] علي الشابي: "أي تأثير لتونس في شخصية المصلح الجزائري الكبير عبد الحميد بن باديس"، مجلة الهداية، العدد 154، سنة 1928 تونس: ص53، 54.
[3] المرجع نفسه: المكان نفسه.

وقد اعتمدت حركة الإصلاح والتجديد في الجزائر على أساس عملي حيث اعتبرت القيم والعمل الصالح هو سبيل النجاح والخروج من المأزق، وأن لا حل للأمة إلا بالرجوع إلى الإسلام الصحيح والعقيدة الصافية، فإن النخلي كذلك آلف بين النظري والتطبيقي والفكر والواقع، فلم ينتقد الفكر الديني السائد آنذاك لمجرد النقد إنما أتخذ من منظومة القيم سبيلا إلى التقويم والتسديد، واستنهاض الهمم وتبيان عظمة الإسلام ووضوحه عبر التاريخ والتبصر بالواقع وقد اعتبر أن العلم عدة وتبصر يجب انتهاجه، هذا هو منهج النخلي الذي تأثر به ابن باديس أيما تأثر 1.

والحق أن تأثر ابن باديس بمحمد النخلي لم يكن مصادفة بل أن هذا الأخير هو من أكبر الأساتذة الذين تلقى على أيديهم العلم في الزيتونة ومن الطبيعي جدا أن يتأثر التلميذ بأستاذه، وقد ظل بن باديس يذكر فضل أساتذته وعلى رأسهم الأستاذ محمد النخلي.

ولا يمكن هنا أن نهمل الدور الذي قام به سالم بوحاجب (1827–1924) والذي رفع منذ منتصف القرن التاسع عشر راية الإصلاح الديني والتجديد الأدبي واللغوي والنضال الوطني، وهو أحد الرموز الذين زعزعوا أركان التقليد في جامع الزيتونة ونشر ألوية الإجتهاد وبصر بأقوم المسالك إلى التجديد والتحديث[2].

ولا شك أن ابن باديس كان مطلعا على أفكار سالم بوحاجب من خلال تلاميذه محمد النخلي والطاهر بن عاشور، ومن بين الذين كان لهم الأثر العميق في توجه ابن باديس هو البشير صفر الموسوم بأبي النهضة التونسية الثاني بعد خير الدين التونسي فلم يكن تأثيره في ابن باديس أقل من تأثير النخلي، فقد أذكى البشير صفر بدروسه في التاريخ بالخلدونية إحساسه القومي وشعوره الوطني واعتزازه بالإسلام، رغم أن مدة تتلمذه عليه لم تزد عن خمسة أشهر[3].

ومن يطلع على كتاب مفتاح التاريخ لبشير صفر ومجموع محاضراته التي كان يلقيها في الخلدونية، يدرك ما مدى نباهة الرجل في تحليل الوضع ونقده للسلبي منه ومقارنة الوقائع والأحداث في التاريخيين العربي والأوروبي بقصد استخلاص العبرة وبعث الروح الوطنية في

---

[1] علي الشابي: المرجع السابق، ص55.

[2] علي الشابي: "الشيخ سالم بوحاجب مصلحا مجددا" في رحاب المعرفة، تونس: 1998، السنة الأولى، ص8.

[3] علي الشابي: "أي تأثير لتونس في شخصية المصلح الجزائري الكبير الأمام عبد الحميد بن باديس"، مجلة الهداية تونس، العدد 154، السنة28 ، أفريل 2003، ص55.

الشباب والحظ على النضال من أجل استعادة العزة، فكانت محاضراته بحق نداء إلى التنوير والوحدة والتحرر [1].

والحق أن الحركة الإصلاحية التجديدية في الجزائر قد سلكت هذا المنهج لاسيما في الدعوة إلى تحرير العقول وتنوير الطريق وبعث أمجاد الأمة فأنجزت المبتغى في الجزائر، لما حققته من نهضة علمية وتربوية ومن تحول تاريخي حاسم في النضال الوطني.

كما أن ابن باديس كان من الداعين إلى ضرورة الأخذ بعوامل التقدم والرقي بالمجتمع الذي لا يكون إلا من خلال الأخذ بالأسباب وتحرير العقول من التقليد الأعمى والشعوذة التي سيطرت على المجتمع ردحا من الزمن.

وهو بذلك يسير على نفس خطى عبد العزيز الثعالبي الذي أصدر كتاب (الروح التحريرية في القرآن) عام 1905 بباريس حيث يرى أن هذه الأفكار هي وفاء لأراء المجددين الدينين المؤسسين من ابن تيمية، إلى جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وهي تدور حول نقد واقع المسلمين خاصة ما عليه نخبهم الدينية والروحية ومحاولة تفسير ذلك الواقع ثم كيفية تعديله إلى نهضة شاملة[2].

ولعل من أهم الأعمال التي خلدت حركة الإصلاح والتجديد في الجزائر هي جمعية العلماء المسلمين التي ظهرت سنة 1931 برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس والدور الكبير الذي قامت به في مجال النهضة وإعادة البعث، وعلى رأي الأستاذ الدكتور بوصفصاف أن فكرة الجمعية لم تكن وليدة الثلاثينات بقدر ما هي ترسب ودراسة تمت خلال العشرينات من القرن العشرين خصوصا من قبل الشيخ بن باديس والبشير الإبراهيمي والعربي تبسي والطيب العقبي، فقد شهدت الجزائر في عقد العشرينات نهضة أدبية وعلمية ودينية وإقتصادية غطت كل مظاهر الحياة الجزائرية تقريبا)[3].

ففي 5جوان 1931 تم تأسيس جمعية العلماء المسلمين التي ضمت صفوة من علماء الجزائر الذين ينتمون إلى مدرسة التجديد الإسلامي السلفي الذي ظهرت في العالم الإسلامي

---

[1] علي الشابي: "أي تأثير لتونس في شخصية المصلح الجزائري..."، مرجع سابق، ص56.

[2] عميرة عليه الصغير: "الزيتونة واليسار الفرنسي وحرية الفكر من خلال قضيتي الثعالبي والحداد 1904-1930"، الزيتونة الدين والمجتمع والحركات الوطنية في المغرب العربي، العدد11، تونس: ماي 2002 ص283.

[3] عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص81.

وهؤلاء العلماء جلهم ممن لهم ماضي حافل في خدمة الثقافة العربية والدعوة الإصلاحية السلفية ومقاومة مشاريع الإستعمار.

هكذا كانت الجمعية ضرورة لا مناص منها وحتمية تاريخية لعقدين من العمل والنشاط والكد في هذا الإطار يقول الشيخ البشير الإبراهيمي: "لو تأخر ظهور جمعية العلماء عشرين سنة أخرى، لما وجدنا في الجزائر من يسمع صوتنا[1]".

وبذلك يمكن القول أن إنشاء الجمعية لم يكن وليد 1931. (لأنها فكرة اختمرت في عقول المصلحين الجزائريين فترة من الزمن فتكونت جمعية العلماء وانتشرت فصائل الإصلاح من مدارسها التي بنيت في كل المدن والقرى الجزائرية فأصبحت تشكل مصدر تهديد للحكم الفرنسي في الجزائر)[2].

والحق أن جمعية العلماء كانت بمثابة مدرسة علمية متكاملة اهتمت بتربية النشأ كما أنها مست جميع جوانب الحياة الدينية والإجتماعية والسياسية وحتى الإقتصادية، هكذا حددت الجمعية أهدافها، يقول أندري جوليان: "هدفها كان إيقاظ الجزائريين من نومهم لكي يطالبوا بحقوقهم ويأخذوا مكانتهم في الحياة الكريمة وتخليص الدين من الخرافات" [3] وفي نظر أندري جليان أن العلماء كانوا يعملون لتطهير الإسلام وتكوين كيان جزائري قائم على الثقافة العربية الإسلامية[4].

إن هدف الجمعية كان إحياء اللغة العربية والدفاع عن الإسلام والعمل على تحرير الوطن الجزائري وتقوية أواصر الأخوة بين العرب والمسلمين.

تشير الإحصاءات أن عدد تلاميذ الجمعية بلغ سنة 1951 ستة وثلاثون ألف ومائتي وست وثمانون تلميذ وتلميذة وأن عدد المعلمين في نفس الفترة بلغ مائتين وخمس وسبعون معلما ويبدو واضحا أن عدد التلميذات في تزايد حتى بلغ عددهن خمسة آلاف وستمائة وست وتسعون[5].

والواقع أن الثورة التحريرية الكبرى قد استفادت كثيرا من جموع الطلبة الجزائريين سواء من خلال التعريف بالثورة أو القيام بنشاطات تدخل مباشرة في إطار العمل الثوري خاصة وأن

---

[1] عبد المالك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، 1925-1954، ش.و.ش.ت، الجزائر: 1983، ص 151.

[2] عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المرجع السابق، ص82.

[3] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الحركة الوطنية، ج2، نقلا عن ديبارني: القادة في إفريقيا الفرنسية، مرجع سابق، جانفي 1933 ص15 .

[4] شارل أندري جوليان: المرجع السابق ، ص 114.

[5] رابح تركي: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، 1931-1956، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1981، ص 214.

تدويل القضية والوصول بها إلى المنابر العالمية كان يتم من الخارج، وهنا يجب أن نشيد بالدور الكبير للطلبة المسلمين في الخارج.

إن واقع الجمعية في جانبها التعليمي ما هو إلا جزء من كل على إعتبار أنها أخذت على عاتقها جميع جوانب الحياة فلم تكتفي بالميدان التعليمي التربوي بل أشتغلت بكل مناح الحياة الأخرى (إلا أن جهدها في بعث النهضة التعليمية في الجزائر رغم التحديات والصعوبات والإمكانات المحدودة والعراقيل الحكومية والطرقية التي حاولت وقف مسيرتها، أستمرت في تقدمها)[1]

كما أنها أهتمت بالجانب السياسي وكانت مدرسة متكاملة ومنظومة شاملة أخذت على عاتقها كل جوانب الحياة، يقول أبو القاسم سعد الله "وإذا جاز لمصلحي مصر وتونس أن لا يهتموا بالسياسة فإن ذلك لا يجوز لمصلحي الجزائر فالإسلام كما هو معروف دين ودولة ولا يمكن أن يتحدث عن الإصلاح في الإسلام مجردا عن معنى الدولة وهذا حتما هو عين السياسة"[2].

من جانب آخر اعتمدت الجمعية في جانبها الإصلاحي على الاحتجاجات والرسائل وبعث الوفود للمشاركة في التجمعات من أجل التعبير عن موقفها فكان كلما صدر عن المحتل قرارا مجحفا قامت الجمعية بملأ صحفها نقدا وتعليقا وتوضيحا وهكذا استطاعت أن تنفذ إلى الكثير من الناس بل وحتى "إلى الرأي العام الفرنسي وتمكنت من النفاذ إلى النواب في المجالس حينما حاول منشور ميشال عرقلة ومراقبة الجمعية وخطب المساجد وقدمت في ذلك رسائل وبرقيات إلى المسئولين تعبر فيها عن تذمرها من القرارات المتعسفة.

والخلاصة أن النهضة التي بدأت في الجزائر بشكل واضح في بداية العشرية الثانية من القرن العشرين وتبلورت خلال العقد الثالث والرابع من نفس القرن قد أخذت وتأثرت بما سبقها من نهضة في البلدان العربية الأخرى لاسيما تونس التي ظل الارتباط بها قويا، من خلال هجرة المثقفين والمتعلمين إليها إلى جانب ما أحدثته النهضة في المشرق بزعامة محمد عبده ورشيد رضا، رغم ذلك فإن النهضة الجزائرية الحديثة بزعامة عبد الحميد بن باديس والإبراهيمي كانت

---

[1] تركي رابح: التعليم القومي، مرجع سابق، ص223.
[2] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الحركة الوطنية، مرجع سابق الجزء3، ص86.

لها بصمتاها الخاصة، لاسيما أن الواقع الجزائري (الاحتلال الاستيطاني) كان يختلف تماما عما كان سائدا في البلدان الأخرى.

وقد كان على رواد الإصلاح والتجديد في الجزائر أن يبدعوا في الأساليب والمناهج التي اقتضاها الحال والتي ربما لم يكن لها شبيه في البلدان الأخرى، وما يمكن استنتاجه أن المعركة بين حركة الإصلاح والتجديد والمستعمر ومن يدور في فلكه كانت معركة حامية الوطيس تقتضي نفسا طويلا وصبرا جميلا وعبئا قد لا يتحمله إلا من كان فعلا مخلصا لدينه ووطنه، مؤمنا إيمانا تاما بقضيته، وأن هذا العمل لا يؤديه إلا متجردا لقضايا أمته، طالبا الرضا من ربه، ونعتقد أن هذا هو السبيل الذي سلكته الحركة الإصلاحية الوطنية في الجزائر في النصف الأول من القرن العشرين، يبرهن على ذلك نشاطاتها المختلفة في ميادين العمل.

ثانيا: في مجال التربية والتعليم:

لقد أدركت الحركة الإصلاحية في الجزائر وهذا منذ رجوع ابن باديس من تونس سنة 1913 واستقراره بقسنطينة أن إنقاض الأمة يقتضي جهود مضنية وعملا مستمرا ومنهجا قويما صحيحا، لذلك فقد وجه كل جهوده إلى التربية والتعليم باعتبارها الوسيلة الأساسية لإخراج المجتمع الجزائري من الوضع المتردي الذي آل إليه، فبعد عودة العلماء من الزيتونة ومن المشرق العربي بدؤوا في وضع اللبنات الأولى للتعليم في الجزائر، وإيجاد المؤسسات التعليمية التي ستضم جحافل الطلبة الذين سيستلمون مشعل النهضة في الجزائر.

والسؤال الذي يطرح نفسه ما هو الأسلوب الذي اعتمدته حركة الإصلاح والتجديد في الجزائر في ميدان التربية والتعليم؟

والحق أن باديس بقدر ما كان متأثرا بمن سبقه ناهلا مما درسه كما يصرح هو نفسه في كثير من مناسبة وظل يعترف بفضل أستاذه خاصة في تونس أمثال محمد النخلي والبشير صفر والطاهر بن عاشور، وظل يذكر جامعته التي حصل فيه منهله العلمي، يشيد بها، فحينما زار تونس في ديسمبر 1936 أقيمت له احتفالات عديدة أوردتها المجلة الزيتونية بقوله: "منبع السعادة والهداية في هذا الشمال الإفريقي هو جامع الزيتونة عمره الله وأنه المنبع الفياض الذي تصدر عنه كل حركة علمية و إصلاحية"[1].

ويصرح مرة أخرى كما جاء في الشهاب عام 1937 بعنوان في تونس العزيزة "حقا أن لتونس هوى روحيا بقلبي لا يضارعه إلا هوى تلمسان اعرف ذلك من انشراح في الصدر ونشاط في الفكر وغبطة في القلب لا أجد مثلها إلا في ربوعها".[2]

ورغم أن الزيتونة رائدة في التعليم وفي تخريج النخب التي قادت الفكر الإصلاحي والمنهج التجديدي لاسيما منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، فهل سار علماء الإصلاح في الجزائر على نفس الطريقة فيما يتعلق بالتعليم خاصة أم أن البيئة والظرف كان يملي على المعلم أن يتدارك ما لا يتماشى مع الواقع، وأن يصحح ما يجب تصحيحه، حتى وان صدر ذلك من مؤسسة عريقة مثل الزيتونة.

---

[1] المجلة الزيتونية: جانفي 1937 م1، ج5، ص262.

[2] الإمام عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام ابن باديس ج4، ص315.

والحق أن ابن باديس قد انتقد أساليب التربية ومناهجها في المعهد الإسلامي كجامع الزيتونة وجامع الأزهر وعاب عليهما جفاف أسلوبهما وانشغالهما بالمحاكاة اللفظية كما عاب عليها مبالغتها في العناية بالفروع وإهمال الأصول وإغفال علوم المقاصد والخوض في الجدل الذي لا يفيد ولا يقدم ولا يؤخر.[1]

ويضرب لنا ابن باديس نموذجا على عقم أساليب التعليم في جامع الزيتونة بحالته هو شخصيا عندما كان طالبا (1908–1911) فذكر أنه تحصل على شهادة العالمية من الزيتونة ولم يميل قلبه إلى دراسة التفسير لعدم تشجيع أساتذته وتوجيهه نحو دراسته.

كما يذكر أن مناهج التعليم في الزيتونة وطرق التدريس به لا تؤدي إلى تحقيق المقصود من التربية الإسلامية كما نتصورها لأنها طرق بالية تهتم بالجانب اللفظي والمناقشات الفقهية والخلاف من أجل الخلاف وقد اعتبر أن أسلوب الزيتونة في التربية والتعليم من هجر للقرآن وإعراضا حقيقيا عن السنة النبوية انحرافا عن أهداف التربية الإسلامية.

وقد استدل على تفكك المناهج بما أورده الإمام أبو البكر ابن العربي (543هـ) في كتابه "العواصم من القواصم" من نقد لاذع لفقهاء الأندلس في عصره حيث رماهم بالتقليد والجمود وجفاف المناهج وعقمها، كما عاب عليهم نظرهم في الحوادث بغير علم" [2] وقد انتهى ابن باديس إلى أنه يجب الرجوع بالتعليم إلى التفقه في الكتاب والسنة وربط الفروع بالأصول.[3]

والحق أن نقد المؤسسات التعليمية العريقة لم تكن بدعة من طرف علماء الجزائر وليس تطاولا عليها بقدر ما هي رؤية حدقة للبيئة والزمان من واقع معاش وظروف سائدة.

فأول من تعرض للزيتونة بالانتقاد هو خير الدين باشا الوزير الذي عرض إصلاحا شاملا سنة 1875 وضرورة التماشي مع روح العصر وقد اشرنا إلى هذا الموضوع في الفصل الأول، وإنما يجب أن نركز هنا على نقد المصلحين، المجددين أمثال عبد العزيز الثعالبي والبشير صفر والطاهر الحداد وغيرهم ممن حمل لواء التغيير وضرورة الانتفاضة على القديم البال، الذي لا يفيد في تغير الوضع ويبقى الحال على حالته، وهذا سواء من حيث الشكل أو المضمون.

---

[1] رابح تركي: ابن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص309.
[2] رابح تركي: مرجع نفسه، ص311.
[3] عبد الحميد ابن باديس: الشهاب ج12، م10، ص518.

يبدو أن النقد الذي وجهه الثعالبي من خلال رسالة صدرت في مجلة المنار بتاريخ: في 14 أفريل 1903 حيث جاء فيها بأن: (علماء الزيتونة جاهلون، متكبرون متعاملون وهم آلهتنا... حديثهم بطونهم مباحثهم خاصة بعجائب التكايا وكرامات القبور وعلمهم كعلم آلهة الأشورين لا يزيد ولا ينقص ولا يتجدد ولا ينعدم وهو محصور في تصريف أكل يأكل أكلا) [1].

وقد دفعت به جرأته هذه من خلال الخوض في أمور الدين وشؤون الطرق المتصوفة والتعرض للتعليم الزيتوني وللقائمين عليه بالتجريح والحط، بتدبير محاكمته مرة أخرى، وذلك بتخطيط من مشيخة الزيتونة، وانتهى الأمر بإهدار دمه.

أما فيما يتعلق بالحداد فقد تدخل شيوخ الزيتونة لضرب حركته الفكرية الجديدة، فقد منع نشر كتاب "امرأتان في الشريعة والمجتمع"، وعموما فإن معارضة شيوخ الزيتونة للأفكار التي صدع بها المحدثون، خاصة الثعالبي والحداد لاعتبارات دينية تتمثل في تعارض أفكار المصلحين مع قناعات هؤلاء وفاءا لوظيفتهم الدينية التي تمنحهم سلطة احتكار تأويل النص الديني والتكلم باسمه، ولنظرتهم الجمودية للدين وبقائهم سجيني نظام معرفي تقليدي يقوم على عبادة الماضي واجترار الموروث من أجل استمرار الكسب الوفير".

ومما لا شك فيه أن هذه الأفكار الجديدة في الإصلاح تتضارب مع مصالح المشايخ وامتيازاتهم الوظيفية ومناصبهم الدينية ومكاسبهم الإقتصادية والتي من الصعب التفريط فيها ولو على حساب النهضة والتطور.[2]

وهكذا نجد أن الأفكار والإصلاحات التي عمل التونسيون على إدخالها في المؤسسة العريقة "الزيتونة" إنما كانت تصب في صالح الأمة وتماشيا مع التطور الحاصل، سواء تلك التي نادى به خير الدين أو الثعالبي أو غيرهما:

والحق أن مطلب تحديث وتطوير التعلم في الجامع كان شغل الشاغل الطالبة النابهين خاصة ممن تخرجوا من الخلدونية التي أنشأت سنة 1896 وممن درسوا وتعلموا في الصادقية التي أنشئت عام ألف وتسع مائة وستة وسبعون وتعد هذه الجمعية بمثابة الفرع العصري للزيتونة والتي جعلت من مسألة إصلاح الدراسات ومن تحديث هذه المؤسسة نفسها برنامجها الإصلاحي حول.

---

[1] عميرة علي الصغير: "الزيتونة واليسار الفرنسي وحرية الفكر من خلال قضية الثعالبي والحداد 1904-1930"، الزيتونة الدين والمجتمع والحركات الوطنية في المغرب العربي، تونس: ماي 2002 ص280.

[2] الهادي جلاب: النخب الإقتصادية التونسية (1920، 1956)، الدار التونسية للنشر، تونس: 1999، ص164.

وإذا عدنا إلى الإصلاح والتربية والتعليم في الجزائر نجد أن العلماء قد استفادوا كثيرا من هذه التجربة التي مر بها الجامع الأعظم منذ 1875 وإلى غاية 1930".

ويجب أن نذكر هنا أساس اعتمده ابن باديس منذ أن بدأ التعليم والتربية، وهي نصيحة كان قد أخذها من أستاذه حمدان لونيسي (أن العلم للعلم وليس للوظيف ولا للرغيف)[1].

والحق أن ابن باديس قد نفذ وصية أستاذه تنفيذا كاملا فلم يقبل الوظائف التي عرضت عليه، كما أوصى هو كذلك تلاميذه بأن لا يقربوا الوظائف الحكومية وأن لا يقبلوها.

ولعلى ابن باديس بنصيحته هذه كأنه يقول لأتباعه وتلاميذه أن الوظيفة تكبل الشخص وتجعله غير حر في سلوكه وفي قراراته ولذلك صح من قال من المعاصرين "إذا أردت أن تقل من في رأسك فكل من فأسك"[*].

أما إذا عدنا إلى منهج العلماء المصلحون في مجال التربية والتعليم إنما نجده منهجا متكاملا مستوفيا لشروط النهضة، فلم يهتم بالمجال الفكري والتفقيهي فحسب بل شمل كذلك الجانب العقيدي والأخلاقي والسلوكي، ولقد كان ابن باديس يبعث في طلابه الروح المعنوية كما كان السيد جمال الدين الأفغاني يفعل مع تلاميذه مما مكنه في فترة وجيزة أن يكون مجموعة من الرجال والقادة استطاعوا أن يبعثوا بنهضة فكرية وسياسية وإصلاحية ليس في مصر فحسب، ولكن في العالمين العربي والإسلامي[2]

وقد اهتم ابن باديس في مواد الدراسة بالتركيز على أصول الدين انطلاقا من الجامع الأخضر أبرزها تفسير القرآن الحديث، الفقه والعقائد، الآداب والأخلاق، العربية وفنونها، إلى جانب الفنون العقلية كالمنطق والحساب.

أما فيما يتعلق بموضوع التفسير فإن ابن باديس اعتبره القاعدة والمنطلق في التربية والتعليم ذلك أن القرآن الكريم هو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل بين يديه وأنه كتاب هداية فما هو المنهج الذي سلكه ابن باديس في تفسيره للقرآن، هل سلك منهج المحدثين؟ أم كان له منهجا متميزا جمع فيه بين تقاليد الأمة وحاجيات العصر؟ وإلى أي مدى تعامل في تفسيره للقرآن الكريم مع نتائج

---

[1] البصائر: العدد226 الصادرة في 17أفريل 1953.
[*] صاحب المقولة هو الشيخ محمد متولي الشعراوي.
[2] رابح تركي: ابن باديس رائد النهضة، مرجع سابق، ص312، 313.

العلم الحديث[1] وما مدى تأثره بالبيئة الزيتونية، التي مكث بها أربع سنوات طالبا ومدرسا أم أن تأثره كان بالبيئة الجزائرية التي قضى بها جل حياته، أم بتأثيرات أخرى؟

الواقع أن جامع الزيتونة ظل يسير في نظمه التعليمية على ضوء الإصلاحات التي قام بها خير الدين منذ 1876 دون أن تعرف تغيرات ملموسة حتى سنة 1912 حينما طالب طلاب الجامع بإصلاح مناهج التعليم، في ذلك الوقت كانت مناهج المدرسة الخلدونية 1896 قد بدأت تفد إلى الزيتونة فصار من الضروري إدخال العلوم الطبيعية إليها. ومما هو أكيد وحتى 1912 كان منهج التفسير المعتمد يتوقف عند قراءة النصوص الأساسية مع دراسة أسلوب النحو والإشارة إلى أسباب التنزيل وكيف تستمد قوانين الشريعة، وكانت التفاسير المبرمجة هي تفسير البيضاوي "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" وتفسير الجلالين.

وقد جاء في شهادة للإبراهيمي حينما حضر أحد دروس التفسير انتهى إلى قوله فالذي نفسي بيده ما سمعت منه كلمة واحدة من الآية التي هي موضع الدرس ولا لمحت إشارة تدل على أن الدرس في التفسير وما كان كل ما سمعت إلا حكاية لجدل عنيف وتمثيلا لمعركة لفظية[2].

وعموما فإن الوسط الزيتوني لم يكن يساعد كثيرا الشيخ ابن باديس في منهجه التفسيري، لذلك نجد أن منهجي محمد عبده ورشيد رضا هما الأكثر تأثيرا، وقد تمكن ابن باديس أن يتم تفسيره على شكل دروس في الجامع امتدت من سنة 1913 إلى سنة 1930.

وسبب ذلك أن ابن باديس كان مشغولا بتعليم الجيل وتربية الأمة الناهضة ومكافحة الأمية المنتشرة في ربوع الوطن، كما كان مصارعا للإستعمار والطرقية، فلم يلتفت إلى تأليف الكتب، إنما كان همه تأليف الرجال، ولا ربما هذا نهج فريد في التربية والتعليم.

والحق أن ابن باديس في تفسيره للقرآن الكريم لم يخرج عن الإطار التقليدي الذي سار عليه المفسرون من قبل لكنه كان في نفس الوقت يبرز خواطر جديدة تؤكد نباهته وسعة إطلاعه، والخلاصة أن تفسير ابن باديس بقدر ما كان متعدد المصادر كان مدرسة لها خصائصها ومميزاتها التي تجعلها مرجعا في الحياة الإجتماعية والدينية والأدبية.

---

[1] عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث والمعاصر، محمد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجا، ج2 غير مطبوع، ص574-577.

[2] محمد البشير الإبراهيمي: "خطبة حفل تفسير القرآن" الشهاب ج4، م14، جوان 1937، ص281.

فقد تمكن ابن باديس من خلال تفسيره للقرآن أن يعود بالأمة إلى ثقافتها وتقاليدها التاريخية ويبين لها مقومات شخصيتها العربية الإسلامية ولأجل ذلك كان يجنح دوما إلى التفسير المبسط والمباشر لطبيعة الجمهور المخاطب فكان منهجه تفسيرا بيداغوجيا خالصا[1].

وفي هذا المجال يمكن أن نسوق مثالا حيا لأسلوب ابن باديس في التفسير، وكيف كان يستفيد من الآية تاركا الخلافات اللفظية وما شابهها من خلافات مثل ذلك ما جاء في تفسيره في الآية الكريمة من سورة النمل: قال تعالى: "حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم ولا يشعرون"[2] وبعد أن يتعرض الشيخ ابن باديس إلى الألفاظ والتراكيب يعطي المعنى الإجمالي ثم ينتهي إلى العبرة والعضة من الآية وفي هذا يقول: "إن هذه النملة أدت واجبها نحو قومها بإعلانها حالة الاستنفار مبينة الخطر، فكيف بالإنسان العاقل فيما يجب عليه نحو قومه، فهذه عظة بالغة لمن لا يهتم بأمور قومه ولا يؤدي الواجب نحوهم، ولمن رأى الخطر داهم فيسكت ويتعامى ...آه آه ما أحوجنا معشر المسلمين إلى أمثال هذه النملة"[3].

ومن خلال هذه الآية يطرح ابن باديس قضية سياسية خطيرة تتعرض لها كثير من المجتمعات ومنها المجتمع الجزائري، والحق أن هذه الرؤية لا يلتفت إليها إلا عارف بالواقع مدرك لحقائق الأمور مطلع بحال الأمة.

وقد كللت جهود الحركة الإصلاحية التجديدية بانشاء معهد ابن باديس وهو ثمرة من ثمار جمعية العلماء، إذ كان لا بد للجمعية من كلية أو معهد تنتظم فيه العلوم حتى وإن كانت المدارس والكتاتيب التابعة لها قد لعبت دورا لا يستهان به في إرساء قواعد التعليم في الجزائر.

والحق أن الفكرة قد تخمرت في ذهن ابن باديس، لولا أن في ذلك الوقت كانت الواجبات أكثر ن الأوقات، وكانت الأولويات تفرض عليه أن يتوجه نحو فئات الشعب، كما أن السياسة التي فرضها الإستعمار، يصعب مفاتحته في موضع كهذا[4].

ولأن الفترة التي تلت وفاة الشيخ كانت مليئة بالفتن ودخول العالم حربا شرسة ومست أعضاء الجمعية، رأت الجمعية أن يخرج ذلك المشروع إلى الوجود وكذلك كان من الضروري

---

[1] عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث والمعاصر، المرجع السابق، ج2، ص579.
[2] سورة النمل: الآية رقم18.
[3] ابن باديس: مجالس التذاكير، ج2، ط1،الجزائر 1982، ص341.
[4] الشيخ البشير الإبراهيمي: آثار الشيخ الإمام البشير الإبراهيمي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1981، ص57.

توسيع التعليم وننظم النشر وفي هذا الإطار جاء هذا المعهد يقول الإبراهيمي – وحدث أن ذلك كما هو الواقع يستلزم اختيار مراحل متتابعة – توسيع التعليم العربي الإبتدائي بتكثير مدارسه وتصحيح مناهجه وإعداد رجاله وقد بلغت الجمعي من هذا في السنوات الأخيرة رغم العراقيل التي تعيقها، ثم جاءت المرحلة الثانية وهي خطوة تأسيس المعهد بقسنطينة ولسنا نعد المعهد مدرسة ثانوية فضلا عن كونه كلية لأننا نسمي الأشياء بأسمائها والمعهد مدرسة إبتدائية أرقى من المدارس التي تهيأ للتعليم الثانوي الذي يهيأ للتعليم العالي وما ربطناه بجامع الزيتونة إلا تمهيدا لذلك[1] وقد أحدث فرعين للمعهد، أحدهما بالجزائر والآخر بتلمسان.

وقد أوكلت الرئاسة للشيخ العربي التبسي الذي شهد له بحسن السيرة والعلم الغزير والتضحية بوقته وماله من أجل وطنه ودينه، يقول الإبراهيمي: "والأستاذ العربي التبسي كما شهد الأخيار وصدقت التجربة مدير بارع ومربي كامل خرجته الكليتان الزيتونة والأزهر.

وإلى جانب العربي التبسي اختير أحسن الأساتذة والمعلمين ممن يشهد لهم بالإخلاص والتفاني والتفهم والإلمام بأمور الدين والدنيا، خصوصا وأن المعهد سيكون بمثابة جامعة لتخريج خيرة الأمة ومن أبرز هؤلاء المشايخ، أحمد حماني الشيخ العباس بن الشيخ، أحمد حسين إلى جانب محمد العيد الرموشي، وعبد القادر البجاوي ومحمد الجيلاني، وأغلب هؤلاء من خريجي الزيتونة وأما المناهج فقد كان الاهتمام بالجانب التربوي وترسيخ العقائد الصحيحة وتعويد التلاميذ على العبادات البدنية والمعهد هو فرع من فروع الزيتونة ولو إسميا حتى يسهل على المتخرجين مزاولة دراساتهم هناك، و"أن برامجه لا تخرج عن أصول تلك البرامج لكنه قد يزيد عليها لفائدة محققة أو راجحة"[2]

يقول محمد خير الدين في شأن المعهد: "لقد ظهر معهد ابن باديس كالمنار الأحب للعروبة والإسلام بالجزائر وقد سبقته عشرات الكتاتيب القرآنية والمدارس الحرة المنبثقة، وهي إرهاصات له – وهي على اختلاف وجودها– حجر أساس لبناء الثقافة العربية الخالصة من الشوائب المؤمونة الجوانب"[3].

---

[1] البشير الإبراهيمي: المرجع السابق، ص58.
[2] المرجع نفسه، ص91.
[3] محمد خير الدين: مذكرات الشيخ محمد خير الدين ومشاركته في جمعية العلماء وجبهة التحرير الوطني ومجلس الثورة، ج1، مطبعة دحلب حسين داي، الجزائر 1985، ص216.

فالمعهد هو إذن عصارة لذلك الجهد المضني الذي قامت به جمعية العلماء منذ 1931 وما سبقها من عمل للعلماء خصوصا ابن باديس في نشر التعليم وإلقاء الدروس للتعريف بالأمة وشخصياتها وإزالة الجهل عنها وفي هذا يقول محمد خير الدين كذلك: "وما معهد ابن باديس إلا أحد أجزاء مقومات تلك المكاسب والمدارس الإبتدائية وما العناية بها إلا عناية به وتسهيل للمهمة وإخراج شيء متحد في الثقافة والتفكير، وما ارتباطه بجامع الزيتونة إلا خطوة أولى لتحقيق وحدة العروبة والعلم والعمل لا بالقول والكسل"[1].

وقد توالى الخريجون من المعهد الذين زاولوا دراستهم بالزيتونة، وبذلك تقوت الصلة بجامع الزيتونة الذي كان برئاسة الطاهر بن عاشور وصارت الشهادة التي تمنح من المعهد لها قبول في كل المعاهد الأخرى وكان لهيئة علمية من الزيتونة شرف على سير الامتحانات النهائية للتلاميذ، صار معهد ابن باديس نواة حقيقية في إنتاج الطاقة العلمية العربية الإسلامية التي ساهمت فيما بعد في تحرير البلاد.

لقد تعززت الحركة العلمية بهذا المعهد الذي كان فعلا بجهود الأهالي ليكون مركزا لتعزيز البعثات التعليمية ويكون ثمرة من ثمار ابن باديس في هذا الحقل ونتيجة لإنتشار المدارس في كامل أنحاء القطر الجزائري، ولأجل ضمان بقائه طلب من نظارة الجامع الأعظم الإعتراف به حتى يضمن الحماية ويعزز بالإنتماء للزيتونة التي كان الإستعمار يخشاها لما لها من فضل ومكانة لدى الأوساط الدينية والإجتماعية وفي عام 1947 وجه رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رسالة إلى جمعية الطلبة الزيتونيين ليخبرهم بإفتتاح المعهد رسميا وأنه فرع من فروع الزيتونة المباركة، وفي حفل رسمي حضره إلى جانب الطاهر بن عاشور والنيفر والفاضل بن عاشور حيث كانت غبطة الطاهر بن عاشور كبيرة بهذا الشرف العظيم، يقول عبد الرحمان شيبان: "في هذه الحفلة عرضنا على مدير الزيتونة رغبة جمعية العلماء فأكبر هذه المبادرة العلمية وأعرب عن اغتباطه الشديد به، بأن يعترف بمعهد يحمل إسم أحد تلاميذه الأصفياء-الإمام بن باديس- كفرع لجامع الزيتونة"[2]

---

[1] محمد خير الدين: المرجع السابق، ص216

[2] عبد الرحمان شيبان: "الذكرى الأربعين لوفاة الشيخ الشادلي بن القاضي"، مجلة الأصالة ماي 1978،الجزائر، ص88.

ورغم أن الشيخ الإبراهيمي من الذين تكونوا في المشرق العربي إلا أن إيمانه بالدور الذي لعبته الزيتونة في الحياة الفكرية بالجزائر والدعم المعنوي الذي دعمت به حركة جمعية العلماء والمناصرة المتوالية التي أنجزت للجزائر من معهد الزيتونة ومشايخها هو الذي حمله أن يقر بهذه العلاقة العضوية بين الزيتونة ومعهد ابن باديس وعمق أبعادها رغم أن الإبراهيمي لم يدرس بالزيتونة رغم ذلك فقد كان ممتنا لأساتذتها إذ يقول: "فأنا لم ّأتخرج من الزيتونة ولم أقرأ في الجامع حرفا ولكنني تخرجت بالمدينة المنورة على أضواء كواكب الزيتونة ولا أحابي الشيخ محمد العزيز التونسي رحمه الله فكان لي نسبة صلة بالزيتونة" [1] وقد تدعم المعهد بالكلية الكتانية، وضل توافد التلاميذ على المعهد حتى أصبح منارة لا يختلف عن أي كلية في العلم الإسلامي، فبعد مرور أربعة سنوات بلغ عدد الطلبة قرابة الألف تلميذ (980) وعدد تلاميذ الكتانية خمسمائة وخمس وسبعون تلميذ، وقد تبين أنه في سنة 1952 بلغ عدد الطلبة الوافدين على الزيتونة للحصول على شهادة التحصيل ثم التطويع تسعون طالبا وهكذا زادت الأوشاج صلة وزاد التواصل والترابط وبلغ عدد الطلبة في الزيتونة والمعاهد التابعة لها ما يزيد عن ألف وخمسمائة طالب في حين أنه في عام 1948 لم يتجاوز عدد الدارسين في الزيتونة عن مائتي طلبا في أحسن الحالات.

ثالثا: مسألة محاربة الطرقية:

إن من أهم القضايا التي عارضها العلماء بشدة هي الطرقية أو المرابطية، فقد اعتبروا أن الجمعيات الطرقية معارضين للدين والتقدم وبناءا على رأي أحد العلماء فإن الطرقية جاءت نتيجة لتدهور الوضع الديني وانتشار الغموض فكان الطرقيين من أهم عملاء الإستعمار، وقد كتب الإبراهيمي قائلا[2]: "إن المرابطية هي الإستعمار في معناه الحديث المكشوف وهي الإستعباد في صورته الفضيعة".

وقد أعلن العلماء الحرب على المرابطين تحت راية لا غموض في الإسلام، لأنها هي سبب الفساد والأمراض والإنحرافات والجهل، فقد عارض العلماء بصراحة الموسيقى الصوفية والرقص في الحفلات الدينية، وزيارة القبور، كما منعوا الهدايا إلى رؤساء الجمعيات الطرقية.

---

[1] جريدة البصائر: 22 ماي 1936

[2] البشير الإبراهيمي: سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين، قسنطينة: 1935، ص26.

وفضلا عن كل هذا فإن بن باديس كان على رأس مدرسة التجديد الإسلامي بالجزائر التي قامت أساسا على تطهير الدين من البدع و الخرافة و العودة به إلى ينابيعه الأولى (الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح).

وفي هذا يورد بن باديس في مجلة الشهاب مقالا تحت عنوان"لماذا حارب الشهاب الطرقية" حيث يقول[1]: "حاربنا الطرقية لما عرفنا منها علم الله من بلاء على الأمة، من الداخل والخارج، فعملنا على كشفها و هدمها مهما تحملنا في ذلك من صعاب .... إلى أن يقول و كل طرقي أو غير طرقي يكون آذان سماعة و آلة مسخرة فلا هوادة بيننا و بينه حتى يتوب إلى الله".

ويبدو من خلال هذا المقال أن بن باديس كان لا يحارب الطرقية لذاتها، وإنما حاربها لأنها صارت بوق من أبواق الإستعمار، ولما صارت تشكل خطرا على الأمة ومقوماتها، وباعتبارها عائقة للنهضة والتقدم.

والحق أن هذه السياسة التي انتهجها المصلحون المجددون ضد الطرقية كان لها مثيل في تونس، فقد أعلن عبد العزيز الثعالبي في كتابه "الروح التحريرية في القرآن" حربا صريحة على هذه الطرق وعلى الجامدين عموما ووجه نقدا لاذعا لرجال الدين ونفى عنهم حق احتكار التكلم بسم الإسلام، لأن الإسلام ليس فيه كهنة، وانتقد فيهم استعلاءهم و روح التعصب [2]، و قد شن حملة شرسة على الطرق الدينية إذ اعتبرها من الأسباب الرئيسية في تعطيل الحضارة الإسلامية و تأخر المسلمين عدة قرون، ويحمل شيوخ الطرق والأولياء مسؤولية تحريف الدين الإسلامي وإقامة نظام وثنية جديد يعتقد في السحر والتنجيم و الذي هو من مظاهر التأخر ومن بقايا حضارة الفرس.

وينتهي الثعالبي إلى أن تبيان الحقيقة والتي تكمن في ضرورة حرية الفكر واحترام جميع الآراء، وقد استنكر أي اعتداء على المعتقدات، وعلى الناس أن يهتدوا عن طريق الإقناع، فلا يجوز أن تفرض عليهم الآراء، ولكن الذي ينبغي أن يوجه قناعاتهم هو حرية الإختيار والمقارنة بين الحق والباطل[3].

وليس مستبعد هنا أن يكون علماء الجزائر قد تأثروا بهذه الحركة في محاربة الطرقية، باعتبارها مكبلة للعقل لاسيما أن الثعالبي كان سباقا لطرح هذه القضية (1905)، ثم لا ننس العلاقة

---

[1] عبد الحميد بن باديس: "لماذا حارب الشهاب الطرقية"، مجلة الشهاب، ج1، م14 مارس 1938، ص ص 1-7.
[2] عميرة عليه الصغير: المرجع السابق، ص283.
[3] عبد العزيز الثعالبي: روح التحرير في القرآن، ترجمة حمادي الساحلي، دار النشر، تونس: 1985، ص56.

الوطيدة التي كانت بين الثعالبي و بن باديس إضافة إلى أن الأول كان كذلك ينتمي إلى مدرسة جمال الدين ومحمد عبده ورشيد رضا وهي المدرسة الإصلاحية التجديدية التي حاربت الطرقية وشنت عليها حملات متوالية وهي نفس المدرسة التي ينتمي إليها بن باديس.

يبقى فقط أن نشير هنا أن مسألة محاربة الطرقية والجمود لم تكن تشغل بال الرأي التونسي بقدر ما كانت عليه في الجزائر، إذ كانت فعلا حجر عثر أمام الإصلاح والتجديد سيما وأن الطرقية في الجزائر كانت تلقى كل الدعم من الإستعمار الذي صخرها بخبث لإفشال المشروع الإصلاحي، هذا ما جعل حركة الإصلاح والتجديد وعلى رأسهم الشيخ مبارك الميلي الذي رفع لواء الحرب عليهم وقد ألف في ذلك كتابا بعنوان "الشرك ومظاهره" لرد الأباطيل و تصحيح العقائد، ولا شك أن مبارك الميلي هو أحد المتخرجين من الزيتونة و تلميذا لإبن باديس حيث التحق بالجامع سنة 1917 وقد كرس حياته لطلب الدراسة، والإفادة من الوسط العلمي الزيتوني.

وعلى رأي محمد الصالح الجابري فإن فترة مكوث الميلي في تونس كانت فترة استيعاب علمي و انقطاع للدراسة حيث مكث سبع سنوات[1].

وقد ظلت علاقات الميلي بالزيتونة وطيدة حيث كان مطلعا على ما يحدث من تحولات، في نفس الوقت كانت الأوساط الزيتونية مطلعة على أعمال الرجل، فقد أولت الصحافة التونسية مثلا أهمية خاصة بمناسبة صدور كتابه "تاريخ الجزائر القديم و الحديث" والذي اعتبر ضربا من ضروب المقاوم ، وتصويبا للأخطاء و المغالطات التي تعمدها الإستعمار من أجل تشويه تاريخ الجزائر، فاعتبر الكتاب نهضة حقيقية[2].

أما كتاب الشرك ومظاهره [*] والذي كان على شكل مقالات نشرت في البصائر ثم اقترح على مبارك الميلي أن يجمعها في كتاب فاستجاب لذلك، بحيث كان هذا الكتاب ذا قيمة علمية فريدة اعترف به العلماء فاتخذوه مصدرا موثوقا يؤخذ منه و يعول عليه في الثانويات والجامعات العلمية بتونس والجزائر وغيرهما[3].

---

[1] محمد صالح الجابري: التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، دار المغرب الإسلامي بيروت، ط1، 1990 ص52، 53.

[2] أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، ج1، وزارةالشؤون الدينية، قسنطينة، ص19.

[*] الشرك ومظاهره: كتاب ألفه الشيخ محمد مبارك الميلي سنة 1925 كان يرد فيه على أصحاب البدع والضلالات من الطرقيين، وقد كان في البداية على شكل مقالات تنشر في البصائر.

[3] عبد الكريم بوصفصاف: رواد النهضة والتجديد في الجزائر،1989-1965، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر: ماي 2007، ص106.

ولعلى ذلك يعود إلى أسباب واضحة أهمها انتشار الجهل في الجزائر، وأساليب الإحتلال في تكثيف نشر الخرافة لإبعاد الأمة عن أصالتها والرمي بها في براثين الجهالة والضلالة.

أما في تونس فيبدو واضحا أن الاحتلال كان قد اصطدم بالمؤسسة الدينية العريقة (الجامع الأعظم) الذي كان يذود عن الدين في حين وجد المجال خصبا في الجزائر لنشر أفكار الطرقية الهدامة، ولم يمنع هذا المصلحين المجددين في الزيتونة من اعتبار أن الطرقية خطرا يجب التخلص منه كما ورد ذلك عند الثعالبي وغيره من الزيتونيين التونسيين الذين سلكوا نفس المسلك أمثال الطاهر بن عاشور والطاهر الحداد وهو النهج الذي سار عليه المصلحون منذ محمد ابن عبد الوهاب.

نستنتج أن محاربة الطرقية لم تكن مسألة خاصة ببلاد دون آخر وإنما كانت وباءا على العالم الإسلامي في فترة التخلف والركود، و كان واجب العلماء والمصلحون والمخلصون أن يحاربوا هذا الداء الخطير الذي تفشى في كيان الأمة الإسلامية.

ولعلى أكثر الحركات التي تصدت لهذا النوع من الإستعمار هي حركة الإصلاح والتجديد في الجزائر التي كانت مرتعا لأشكال الطرقية ربما لم تعرفها أغلب الدول العربية والإسلامية الأخرى و كانت المواجهة حادة و طويلة انتهت في الأخير بانتصار الحق على الباطل.

رابعا: مسألة التجنس:

إن فكرة التجنس هي من الأساليب التي جاء بها المستعمر من أجل فرض سيطرته وسعيا لتذويب المجتمع و القضاء على شخصيته وقوميته، ومن المعروف أن الإستعمار الفرنسي لم يكن على استعداد لقبول كل المتجنسين، إنما كان يختار ممن تقبلوا الأفكار الفرنسية، ولذلك كان يشترط التخلي عن الأحوال الشخصية، من هنا يفهم أن فكرة التجنس قد تعني التخلي عن الدين وهذا هو رأي أغلب المصلحين في الجزائر وفي تونس.

من هذا المنطلق فقد هاجم العلماء المصلحون محاولات الاستعمار في تجنيس الجزائريين فلم يتوانوا في اعتبار التجنس خطة فرنسية لمحو الإسلام والعروبة في الجزائر
وكان أولائك الجزائريون الذين قبلوا التجنس غالبا محل صخرية و شفقة من العلماء[1].

---

[1] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الحركة الوطنية، ج2، مرجع سابق، ص428.

والحق أن مسألة التجنس كانت من أهم مسائل الإحتكاك الذي وقع بين الحركة الإصلاحية والحكومات الفرنسية، فتلك القوانين التي فرضتها فرنسا على الجزائريين بمقتضى القانون الإمبراطوري الصادر في 14 جويلية 1865، و في عام 1919 صدر قانون آخر أبقى على المسلم الجزائري مخيرا بين أمرين، فإما أن يكون جزائريا بلا حقوق وإما أن يتجنس بجنسية فرنسية و التي هي الجنسية الرسمية فينسلخ بالتالي من ذاتيته الإسلامية[1].

وفي عام 1930 أي بمرور مائة سنة على الإحتلال أصبح لتجنس دعاة متحمسون من بعض الجزائريين الذين سبق أن تجنسوا بالجنسية الفرنسية فلم يكن أمام حركة الإصلاح والتجديد سوى أن شنت على التجنس ودعاته حملة شعواء عن طريق الجرائد والمجلات والخطب والندوات، فقد كتب العربي التبسي في العدد 95 من جريدة البصائر وهو رئيس لجنة الإفتاء: "إن التجنس كفر وارتداد"، وقد أصدرت في ذلك فتوى صريحة بتكفير كل من يتجنس بالجنسية الفرنسية ويتخلى عن أحكام الشريعة الإسلامية وقد أصدرها الشيخ بن باديس وصادقت عليها لجنة الإفتاء بالجمعية ونشرت في الجريدة الرسمية للجمعية[2].

والواقع أن مسألة التجنس قد عرضت كذلك في تونس فوقفت النخبة منها موقفا غير واضح ففي قانون 20 ديسمبر 1923 الذي أثار نقمة علماء الزيتونة واعتبروه هجمة من هجمات المسيحية على الإسلام لأن المسألة لها مساس بالعقيدة.

والحق أن علماء الزيتونة لم يكن لهم موقفا صريحا و بينا إلا القليل منهم أمثال أحمد عياد وهو عالم زيتوني أصدر فتوى جريئة لينهي بذلك التردد الذي بدا في أول الأمر حيث قال: "لقد أزعجت مسألة التجنس الأمة التونسية واحتار الناس فيها وتوجهوا إلى علماء الشريعة يستنفرونهم في حكم الله في التجنس والمتجنسين، حتى يكون الناس على بينة من أمرهم وحيث رأيت خطورة هذه المسألة و مساسها بالدين ولأني لم أر من العلماء بكل أسف من قام بهذا الواجب العظيم خشيت أن أكون مسؤولا اتجاه أبناء وطني وأمام الله والتاريخ عن سكوتي محجوجا"[3].

---

[1] جريدة البصائر: العدد22، السنة الأولى، 5 جوان 1936، ص2.
[2] البصائر: العدد95، السنة الثالثة، 14 جويلية 1938، ص1.
[3] عبد الكريم الغلافي: "النخبة وأهل الكتاب في عهد الحماية"، مجلة الزيتونة الدين والمجتمع والحركات الوطنية في المغرب العربي، تونس: ماي 2002، ص309،308.

وتعتبر فتوى أحمد عياد أول فتوى جوهرية صدرت بجريدة الأمة التونسية تفيد بكفر المتجنسين استنادا لما ورد في القرآن الكريم في سورة المائدة قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود و النصارى أولياء بعضهم أولياء بعض و من يتولهم منكم فإنه منهم"[1].

وقد كان لهذا الموقف من أهل الكتاب ومن التجنس صدى في مصر إذ قامت جريدة السياسة القاهرية في 17 يناير 1923 بنشر الفتوى و أصرت جريدة العصر الجديد اليومية يوم 15 ديسمبر 1923 مقالا لمحمد شاكر وكيل الأزهر سابقا يتضمن فتوى في التجنس تساند وتتضامن مع فتوى أحمد عياد معتبرا المتجنس مرتدا عن الإسلام و ملعونا على لسان الشريعة الإسلامية و سنة الأولين و الآخرين[2].

والحق أن علماء الجزائر لما أفتوا بردة المتجنس إنما كانو على بصيرة فبعد أن أخذوا الإستدلال من الكتاب والسنة وممن سبقهم في هذا المجال حيث كان واقع الحال في الجزائر مشابها لما كان في تونس، ويتبين بوضوح أن فرنسا الإستعمارية لما عرضت مسألة التجنس في الجزائر وتونس إنما كانت بمقاس واحد ولغرض واحد وهو القضاء على الشخصية العربية الإسلامية.

وإذا كان التردد جليا على علماء الزيتونة كما أشار إلى ذلك أحمد عياد فإن المسألة في الجزائر كانت صريحة وفاصلة ولو أن الفتوى في البلدين اعتبرت أن المتجنسين مرتدين على الإسلام.

غير أن علماء الزيتونة انقسموا حول المتجنسين فمنهم من اعتبر المتجنس كافرا يلتزم في حقه الإنسلاخ من أحكام الشريعة الإسلامية محتجين بالنص القرآني، و يقتضي أن المتجنس يحاكم و لا يستفيد من التركة ولا يجب دفنه في مقابر المسلمين [3] و فريق آخر من الزيتونيين يرى أن المتجنس عاص لأمر الله و لا يصبح كافرا.

ويبدو أن علماء الزيتونة بقدر ما كانوا سباقين لمواجهة هذه المعضلة الخطيرة إلا أن موقفهم لم يكن جريئا و فاصلا في كل الحالات، إلا أن واقع الحال في الجزائر كان مغايرا لما كان

---

[1] سورة المائدة الآية 51.

[2] العصر الجديد: فتوى محمد شاكر 15 ديسمبر 1923، ص2.

[3] الشادلي بلقاضي: "حكم الله في التجنس"، المجلة الزيتونية، ج1، م1 سنة 1937، ص534.

في تونس فقد لقيت فتوى علماء الجزائر فزع المتجنسين والإستعمار لأنها كانت بمثابة ثورة حطمت كل آمال المتجنسين ومن ورائهم سلطة الإستعمار [1].

فقد أصدر بن باديس مقالا مطولا في جريدة الشهاب يرد فيه على دعوة أحد دعاة الإندماج بعنوان كلمة صريحة وبعد أن عرض لأقواله قال: "قال أحد النواب النابهين أنه فتش عن القومية الجزائرية في بطون التاريخ فلم يجد لها من أثر، ثم انتهى بالرد المفحم حيث قال:

"إننا نحن فتشنا في صحف التاريخ وفتشنا في الحالة الحاضرة فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا، و لهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال ولها وحدتها الدينية واللغوية وثقافتها الخاصة ... إلى أن ينتهي بالقول أن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا و لا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت بل هي بعيدة عنها كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها ...."[2].

وقد جندت حركة الإصلاح و التجديد في الجزائر كل الوسائل المتاحة لدحض دعوى التجنس، ورفض كل الأعذار التي قد يسوقها المتجنسون لأن الأمر يمس بأقدس مقدسات الأمة وهو الإسلام، كما يتضح أن مسألة التجنس لم تطرح بحدة في أي بلد كما كان في الجزائر ذلك أن فرنسا ظلت متمسكة بالمستوطنة واعتبرت أن الجزائر جزء منها وأن سكانها هم فرنسيون، في حين أن الوضع في تونس أو مصر أو البلدان الأخرى، حيث كان الاستعمار يقر بأن وجوده كان ظرفيا (حماية).

ومن هنا نفهم تلك الهبة لدعاة الإصلاح و رفضهم القاطع التساوم على مثل هذه القضايا أو طرح النقاشات حولها، و اعتبروا فعلا روادا يقتدى بهم في الدفاع عن شخصية الأمة.

[1] رابح تركي: عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح، مرجع سابق ، ص74.
[2] ابن باديس: "كلمة صريحة" مجلة الشهاب، ج1، م11، ص45، أفريل 1936.

خامسا: قضايا المرأة:

لقد كان الاهتمام كبيرا بالناحية الإجتماعية من قبل المصلحين الجزائريين لاسيما المسائل الحساسة التي كانت تشغل بال المجتمع و لعلى من القضايا التي استأثرت بالبحث و الإثراء هي قضية المرأة، فقد تم تناول هذا الموضوع من عدة جوانب، من حيث تعلمها وتحريرها وترقيتها، كما طرحت قضايا متعلقة بولاية المرأة وعملها ومسألة التعدد ونحو ذلك من القضايا التي شغلت بال المصلحين والمتخصصين سواء في المغرب أو المشرق العربيين.

والواقع أن فكرة الإصلاح التي انتشرت بشكل جلي في بلدان المشرق العربي ثم انتقلت إلى بلدان المغرب حيث اهتموا اهتماما بالغا بقضية المرأة باعتبارها أنها نصف المجتمع، وأن عدم الخوض في مثل هذه القضايا يجعل حركة المجتمع عرجاء.

فالمعروف أن في مصر ظهر مؤلفون وكتابا خاضوا في هذا المجال و ألفوا في ذلك كتبا وأبدوا آراءهم في الموضوع منهم (حمزة فتح الله 1849 – 1918) وقاسم أمين (1863 – 1908) بكتابه تحرير المرأة، و كتاب المرشد الأمين لرافعه الطهطاوي[1].

توالى بعد ذلك المهتمون بهذا الجانب، كان من أبرزهم عبد الحميد حمدي الذي أسس مجلة أسبوعية متخصصة في شؤون المرأة سماها (السفور) وخلال تلك الفترة ظهرت كتابات أخرى أكثر تخصصا مثل كتابات هدى شعراوي و رشيد رضا و محمد عبده (نداء إلى الجنس اللطيف).

وسنبين في هذا المبحث أراء المصلحين والمفكرين في قضية المرأة والجدال الحاد الذي احتدم بين المدارس المختلفة سواء في بلاد المشرق أو المغرب مع التركيز على نظرة المصلحين الجزائريين المجددين الذين درسوا بالزيتونة مع إبراز أراء الزيتونيين التونسيين، أمثال عبد العزيز الثعالبي و الطاهر الحداد.

والحق أن موضوع المرأة و إصلاحها قد ظهر في كتابات بعض الجزائريين أمثال محمد مصطفى بن الخوجة الجزائري، الذي ألف كتابا في أواخر القرن التاسع عشر يتناول فيه قضايا المرأة ولنفس الغرض ألف عبد العزيز الثعالبي كتابه روح التحرير في القرآن، وأشهر من خاض في هذا الميدان الطاهر الحداد (1899 – 1935) وهو زيتوني اشتهر بكتاب (امرأتان في الشريعة والمجتمع) كان يدعو صراحة إلى تحرر المرأة، وإلى جانب ذلك فقد اهتم المصلحون الجزائريون

---

[1] عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث والمعاصر، محمد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجا، دراسة فكرية وتاريخية نقدية، ج2 غير مطبوع، 352-353.

في بداية القرن العشرين بهذا الموضوع، قد ظهر ذلك في مقالاتهم الصحفية التي تصدر في المجلات و الجرائد لاسيما في مجلة الشهاب.

و يتوجب هنا أن نطرح سؤالا وهو كيف نظر الزيتونيون إلى المرأة؟ سواء أكانوا محافظون أم مجددين وما مدى تأثر الحركة الإصلاحية في الجزائر بهذا الاتجاه أو ذاك؟

يذهب الحداد إلى ضرورة المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة وقد انطلق من القرآن الكريم حيث أورد خمسين آية تشير إلى تساوي المرأة والرجل في الحياة وطلب العلم والفرائض والعقوبات و تجنب الفواحش وغيرها[1].

وقد رفض الحداد مسألة تعدد الزوجات واعتبرها من سيئات الجاهلية حيث يعلل وجودها بعوامل اقتصادية واجتماعية، و يعتبر أن الآيات التي أشارت إلى التعدد في سورة النساء إنما كانت للتدرج في التشريع.

ويذهب الحداد في مسألة لباس المرأة (الحجاب) إذ يقول [2] " فالحجاب الذي يفرض على المرأة كركن من أركان الإسلام و النقاب الذي يوضع على وجهها ليس من المسائل التي يسهل إثباتها في الإسلام".

وبعد صدور كتاب "امرأتان في الشريعة والمجتمع" تم الحجز عليه عملا بالفصل الثالث والعشرين من قانون جامع الزيتونة حتى لا تنتشر تلك الأفكار العقيمة والفتنة التي أثارها، كما شكلت النظارة العلمية للجامع لجنة تنظر في هذا الكتاب، وقد انتهت إلى أن هذا الكتاب ناقض للتعاليم القرآنية وتضمن عدوانا على مقام النبي صلى الله عليه وسلم فوجب في نظرها تكفير مؤلفه.

وقد تجند مشايخ الزيتونة للرد على الحداد سواء في الصحافة أو في الكتب لمواجهة هذا التشويه و تلك الحماقات.

والواقع أن الحداد وإن كان زيتونيا فإنه لا يرى نفسه الداعي الديني والمصلح السلفي، فقد تشبع بالفكر الحديث عبر مطلعاته واحتكاكه بالعقلانيين أمثال علي الحامي، المختار العياري، وروبير باك.

---

[1] عبد المجيد البدوي: موقف المفكرين العرب، أطروحة دكتوراه، تونس: 1985، ص547.
[2] الطاهر الحداد: امرأتان في الشريعة والمجتمع، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس: 1997، ص34.

ويفهم أن الحداد في كتابه هذا كان يمجد العقل والعلم ويعتبر أن حرية الفكر هي شرط أساسي في الإبداع والإنتاج، وبذلك فقد نظر إلى القرآن كسلطة مرجعية على مستوى المقاصد لا الأحكام التفصيلية[1].

ومن الكتابات التي رد بها الزيتونيون على أفكار الطاهر الحداد كتاب "سيف الحق على من لا يرى الحق" لــعمر بن ابراهيم البري المدني*

و تتلخص ردوده في :

أن الأحكام الشرعية لا تتطور و لا تتغير عكس ما ادعاه الحداد.

أن الإسلام لا يبيح إعمال الرأي عند ظهور نصوص شرعية و أن مخلفتها كفر وفسوق.

أن المرأة ليست مساوية للرجل في قدراته العقلية بل هي ناقصة بحجة تركها للصلاة و الصوم عند الحيض و شهادتها نصف شهادة الرجل، ولا يمكن للمرأة أن تساوي الرجل البتة شرعا لأن الدين يقول "وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم"[2].

إن تعدد الزوجات ليس سيئة من سيئات الجاهلية كما قال الحداد بل هو حسنة من حسنات الإسلام وأن بعث محاكم الطلاق هو من باب الإلحاد و التواطؤ مع رجال الكنيسة، وعموما فقد انتهى الأمر بتكفير الحداد، وحكم عليه بالإدانة وانتزعت منه شهادة التطويع.

أما موقف حركة الإصلاح والتجديد الجزائري وعلى رأسهم ابن باديس فقد اعتبروا هم الآخرون آراء الحداد خاطئة، لا تمت للفكر الإسلامي بأي صلة وأنها تقليد أعمى للغرب، في حين أن نظرتهم للمرأة كانت متكاملة وأن النساء شقائق الرجال، قال تعالى "من عمل صالحا من ذكر أو أنثى و هو مؤمن لنحيينه حياة طيبة و لنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون"[3].

فقد أولت حركة الإصلاح والتجديد عناية خاصة بالمرأة، فعندما تأسست جمعية التربية والتعليم الإسلامية مثلا وفتحت مكتبا لتعليم الأطفال والبنات جعل مجانا بالنسبة للفتيات سواء أكن قادرات على دفع مصاريفه أم عاجزات عنها، وفي ذلك تشجيع لهن على الإقبال على الدراسة[4].

---

[1] عميرة عليه الصغير: الزيتونة واليسار الفرنسي ص285، 286.

* ألف هذا الكتاب عام 1931 بتونس وقد ألفت كتبا أخرى لنفس الغرض.

[2] سورة البقرة: الآية 228.

[3] سورة النحل: آية 97.

[4] رابح تركي: عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح، مرجع سابق ، ص330.

والمرأة في نظر دعاة الإصلاح والتجديد كالرجل يحق لها أن تتعلم وأن تتثقف إلى أقصى ما تستطيع الوصول إليه من المعرفة، وقد طرحت قضايا تتعلق بها كمسألة الملكية وبعض الوظائف الإجتماعية، وعموما فإن الحركة كانت تريد الإرتقاء بالمرأة ومحاربة الجهل والأمية فيها لمجابهة الحركات التغريبية التي تسربت إلى المجتمع الإسلامي.

وقد قاوم المصلحون الجزائريون بزعامة ابن باديس الأفكار التحررية التي تنخر حق المرأة، وهذا ما يؤكد الهجمة القوية على كتاب "امرأتان في الشريعة و المجتمع" في حين تشبث المصلحون بأفكار رشيد رضا التي كان يدعو فيها إلى الإصلاح ومواجهة أصحاب الفكر التغريبي وقد نشرت الشهاب مقالات رشيد رضا في خمسين صفحة بعنوان "هل يجب مساواة المرأة بالرجل؟" وهي على شكل مناظرة جرت بكلية الحقوق في الجامعة المصرية بين محمود عزمي و رشيد رضا[1].

وعموما فإن ابن باديس يريد من الفتاة الجزائرية أن تكون عالمة وكاتبة وأديبة وطبيبة لأن المجتمع الجزائري كان يعاني من شتى أشكال التخلف والجهل والأمية، وعلى المرأة الجزائرية أن تتخذ من النساء العربيات المسلمات قدوة لها، وبذلك فهو يطمح إلى ترقيتها وتحفيزها على طلب العلوم والفنون والآداب[2] وبذلك فإن المطلوب من المرأة الجزائرية العربية أن تساهم في شتى مجالات الحياة على غرار نساء السلف.

من جانب آخر يتضح أن ابن باديس كان يدرك أهمية تعليم الفتاة الجزائرية وأثر ذلك في مستقبل النهضة الوطنية، سواء من حيث إعدادها علميا وخلقيا أو اقتصاديا وإجتماعيا وسياسيا وجعلها أما صالحة وزوجة صالحة جديرة بالشاب المتعلم الذي يرفض الإقتران بالفتاة الجاهلة ويقبل على الزواج بالمرأة الأجنبية، على ما في هذا الزواج المختلط من خطورة على مستقبل الأولاد وكيان الأمة القومي والديني، ومن ناحية النظر إليها على أن تكون نصف المجتمع وهي الوالد للطفل والحاضنة له ومربيته، وبهذا الإعتبار فهي المدرسة الأولى في المجتمع[3].

كما قال حافظ إبراهيم شاعر النيل:

الأم مدرسة إذا أعددتها *** أعددت شعبا طيب الأعراق

---

[1] ابن باديس: "هل يجب مساواة المرأة بالرجل"، مجلة الشهاب، ج1، عدد6، مجلد6، سنة 1932.
[2] عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث والمعاصر، محمد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجا، مرجع سابق، ص366.
[3] المرجع نفسه، ص383.

الأم روض إن تعهدته *** بالري أورق أيـــــام إراق

وبذلك فإن حركة الإصلاح والتجديد قد نظرت إلى المرأة على أنها الزاوية الأساسية في ركن الأسرة التي يتشكل منها المجتمع، لذا توجب الإهتمام بها دينيا وخلقيا وقوميا.

ومن القضايا التي أثيرت عند دعاة الإصلاح والتجديد في الجزائر مسألة سفور المرأة باعتبارها من القضايا التي شغلت رأي المفكرين في مصر وتونس وغيرهما، كما أنها كانت من أهم آثار الحضارة الغربية على الشرق الإسلامي.

فلقد قوبل كتاب «امرأتان في الشريعة والمجتمع » للشيخ الطاهر الحداد بانتقاد شديد من طرف المصلحين الجزائريين، فقد أعتبره ابن باديس مناقض للشريعة الإسلامية، ويدعو إلى أبطال أحكام عديد في القرآن الكريم الصريح القطعي.

ولعل أن أفكار الطاهر الحداد قد تركت آثارها في بعض دعاة الإصلاح الجزائريين أمثال أبو يعلى الزواوي الذي لا ير مانعا من سفور المرأة وخروجها، كما يعتبر الحجاب هو أدب النفس وأدب الدرس وخلق القرآن ومراقبة الديان[1].

غير أن كثيرا من المصلحين حارب السفور وتحامل على الدعاية إلى تحرير المرأة، وأشهرهم سعيد الزاهري وأبو اليقضان، وقد أثارت الصحف صراعا فكريا بين أبي اليقضان وهو زيتوني من المصلحين المجددين وأحد قادة السفور، حيث أوردت جريدة النديم تحت عنوان «دعوة إلى السفور » حيث أنته الأمر بصاحب المقال إلى أن حجاب المرأة أخطر على عفتها من السفور، وأن الحجاب ليس إلا بقية محكمة تمكنهم من القيام بأخطر الأدوار.

ولم تنته المسألة عند هذا الحد بل تحولت إلى معركة قلمية، حيث رد أبو اليقضان بمقال بعنوان «أردنا نصيحة فأراد فضيحة » وانتهى بقوله: "والحقيقة أن مسألة السفور والحجاب ليست مسألة جمود وحركة، ورقي وانحطاط وعلم وجهل بل هي مسألة تدين وعفاف وأن ما أثير هو فتنة من فتن أوروبا التي خدعت بها ضعاف المسلمين لينصرفوا عن واجباتهم الدينية والوطنية[2].

ومن أشد الداعين إلى الحفاظ على وضع المرأة ومعارضة التغريب رمضان حمود، إذ كان يرى أن الدعوة إلى الحداثة في موضوع المرأة هي دعوة لتهديد الإسلام أولا والشرف ثانيا، لأنها

---

[1] محمد ناصر: المقالة الصحفية، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1981، ص249.

[2] المرجع نفسه: ص252.

تستهدف تدمير أساس الأمة الإسلامية وهي الأسرة، ويطلب صراحة من دعاة التحديث أن يدعوا المرأة المسلمة وشأنها، فقد كفاها الإسلام واستغنت بالسعادة التي كفلها لها القرآن[1].

والحق أن قضايا المرأة التي أثيرت إنما طرحت كنتيجة للتطور الحاصل في المجتمع وإلى الاحتكاك الذي حصل بين الحضارتين الغربية الوافدة والحضارة الإسلامية وعموما فإن حركة الإصلاح والتجديد قد وقفت من قضايا المرأة موقفا سلفيا، كما أن دعاة التغريب لم يلقوا آذانا صاغية إلا من طرف القليل ممن تأثروا بالأفكار الوافدة من أوروبا.

سادسا: قضايا الإعلام:

ظلت الصحف في مطلع القرن العشرين أهم وسيلة للدعاية وسبيلا مهما لإعلام الجماهير لذلك سعى المصلحون المجددون إلى بناء شبكة متكاملة من الإعلاميين والمتضلعين وصحافة جادة تضطلع بقضايا المجتمع.

وقد أوردنا في فصل سابق كيف أن الجرائد والمجلات التي كانت ترد إلى الجزائر عن طريق المهاجرين العائدين أو عن طريق الحجاج، كانت تتلقف وكان لها قراء دائمين خاصة منها العروة الوثقى لمحمد عبده ومجلة المنار لرشيد رضا، هذه الصحف التي كانت تحوي على المتغيرات في العالم الإسلامي لا سيما في الشرق، في نفس الوقت كانت بعض الجرائد ترد من تونس وتصل إلى المدن الحدودية خاصة مدينة تبسة، كما يذكر ذلك مالك بن نبي في كتابه شاهد القرن.

وبناءا على ذلك فقد ادركت حركة الإصلاح والتجديد الجزائرية مدى أهمية التحكم في هذه الوسيلة الخطيرة ذات التأثير الواسع.

فالصحف التونسية مثلما كانت توفر المادة الإعلامية والثقافية الإسلامية كانت باعثا وحافزا لبعض مثقفي الجزائر من إصدار صحف مماثلة باللغة العربية لتعويض الصحف التونسية التي كانت تتعرض بين الحين والآخر إلى المصادرة.

والحق أن كثيرا من الأقلام التي كانت تكتب في الصحافة التونسية، هي جزائرية أمثال ابن قدور وأحمد توفيق المدني، وقد ذكرنا هذا في فصل سابق.

---

[1] محمد ناصر: رمضان حمود الشاعر الثائر، ص98.

ومن أجل نشر الفكر الإصلاحي أنشأت جريدة النجاح في قسنطينة، حيث يقول مالك بن نبي[1]: "كنت آخذ العناصر الأولى من الثقافة العربية، فقد كانت صحيفة النجاح التي أسسها (مامي إسماعيل) الذي يعود من الزيتونة تحيط به هالة من نور العلم، ولأن الصحيفة باللغة العربية فقد كانت تعد ضربا من التحدي للإدارة الاستعمارية، وصار قراء عديدين للصحيفة بعد أن كانوا يقرؤون الزهراء التونسية، وكانت جريدة النجاح التي تصل إلى تبسة تطوف من يد إلى يد أخرى[2].

فمنذ أن عاد ابن باديس من الحجاز وأستقر بالجزائر شرع في إنشاء الصحف فكانت أولاها المنتقد ثم الشهاب، فعبد الحميد بن باديس يعتبر من بناة الصحافة العربية الحديثة في الجزائر ومن الذين أرسوا دعائمها على أساس من الإيمان والوطنية وعلى نفس السياق سارت ثلة من العلماء حيث أنشئوا صحفا حرة مثل أبي اليقضان والطيب العقبي رغم الإضطهاد العنيف الذي كانت تتعرض له الصحافة العربية من طرف الإدارة الإستعمارية في الجزائر[3].

صحيح قد وجدت في الجزائر صحافة منذ مطلع القرن العشرين، غير أن هذه الصحافة كانت ضيقة النطاق محدودة الانتشار وغالبا ما كانت تحل من طرف الإدارة الاستعمارية، أما في فترة العشرينات فقد صارت الصحافة إحدى أهم الوسائل المعتمد عليها في إبلاغ أراء الحركة الإصلاحية التجديدية لعموم الأمة.

فقد كانت المنتقد منذ البداية حارة اللهجة شديدة الإنتقاد لتصرفات الإدارة الإستعمارية، قوية الحملة على البدع والطرقية، لذلك لم تعش طويلا حيث أوقفتها الإدارة الإستعمارية بعد صدور ثمانية عشرة عددا فقط، وقد كان شعار هذه الصحيفة (الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء)[4].

وقد جاء في افتتاحية العدد الأول بقلم ابن باديس تحت عنوان "مبادئنا وغايتنا وشعارنا" قوله: "بسم الله ثم باسم الحق والوطن ندخل عالم الصحافة العظيم شاعرين بعظمة المسؤولية التي نتحملها فيه مستسهلين كل الصعاب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون والمبدأ الذي نحن عليه عاملون، وها نحن نعرض على العموم مبادئنا التي عقدنا على السير عليها"[5].

---

[1] مالك بن نبي: مصدر سابق، ص89.
[2] محمد الصالح الجابري: التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، ط1، دار الغرب الإسلامي لبنان: 1991، ص140.
[3] رابح تركي: ابن باديس رائد الإصلاح، مرجع سابق، ص188.
[4] المرجع نفسه: ص189.
[5]ابن باديس: "مبادئنا وغاياتنا وشعارنا" المنتقد العدد الأول، 2جويلة 1925.

وتعتبر هذه الإفتتاحية هامة جدا وتاريخية، لأنها أول افتتاحية يكتبها بن باديس بعد أن دخل عالم الصحافة وشرح فيها أرائه السياسية ومبادئه التربوية كما أوضح فيها منهجه في النقد الإجتماعي والسياسي.

وبعد إغلاق جريدة المنتقد من طرف الإدارة الإستعمارية أصدر الشيخ بن باديس جريدة أخرى لتحل محلها وهي جريدة الشهاب والتي صدرت أول مرة عام 1925 وكانت في بداية الأمر جريدة أسبوعية ثم تحولت ابتداء من شهر فيفري إلى مجلة شهرية، كتب بن باديس في رأس الصفحة الأولى من عددها الأول: "تستطيع الظروف أن تكيفنا ولا تستطيع بإذن الله إتلافنا"[1].

وتعتبر مجلة الشهاب من حيث المحتوى والمنهج الإصلاحي والسياسي ثالث مجلة في العالم العربي الإسلامي بعد العروة الوثقى لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والمنار لرشيد رضا، فقد حملت لواء الدفاع عن حقوق الوطن الجزائري وإثبات شخصيته المتمثلة في (العروبة والإسلام والوطن).

والحق أن المصلحين المجددين وعلى رأسهم ابن باديس قد سلكوا هذا الطريق وهو درب الأولين الذين جاؤوا بفكرة التجديد سواء في المشرق أو المغرب لاسيما في تونس حيث عرفت الفترة التي عاشها ابن باديس هناك (1908 – 1912) حياة سياسية نشيطة قادتها الشبيبة التونسية بزعامة عبد العزيز الثعالبي وعلي باشا حانبه، كما شهدت حركة إعلامية لافتة مثلتها أساسا جرائد الحاضرة، الصواب، المشير التونسي[*]، والإتحاد الإسلامي.

وقد كان صدور جريدة التونسي [**] في نسختها العربية في أكتوبر 1909 حدثا هاما إذ جمعت الشباب الطلابي حولها بما كانت تتناوله من قضايا وطنية وما تصدره من تحاليل سياسية ونقد لسلطات الإحتلال، ولعل ذلك سجل كله في ذاكرة الشيخ ابن باديس الذي تناول مثل هذه الموضوعات في الصحف التي كان يصدرها خاصة الشهاب.

فحينما وقع الهجوم على ليبيا مثلا في 20 سبتمبر 1911 أصدر عبد العزيز الثعالبي وعلي باشا حانبه جريدة الإتحاد الإسلامي للدفاع عن القضية ودعيا إلى وحدة النضال وضرورة تضافر

---

[1] عبد الحميد بن باديس: مجلة الشهاب، العدد الأول، المجلد الأول، سنة 1929، ص1.

[*] أسست في جانفي عام 1911، شعارها "أسير بما يمليه علي الضمير...إذ ما أنا إلا أسير الوجدان"، وهي جريدة إسلامية إصلاحية عمومية أسبوعية، صاحب إمتيازها الطيب بن عيسى.

[**] جريدة التونسي: كانت تصدر باللغة الفرنسية (Le tunisien) ثم تحولت باللغة العربية منذ 1909، اهتمت بالقضايا السياسية والقضايا الإجتماعية، كما كانت تطرح قضايا الطلبة المتنوعة.

جهود المسلمين[1]. كما أثارت الجريدة قضية حادثة الزلاج وحادثة الترامواي مما جعل الإستعمار يلجأ إلى إغلاقها.

والحق أن ابن باديس وهو في تونس في هذه الفترة مشاركا في الحركة الطلابية قد انحاز بوضوح إلى التيار الإصلاحي في الزيتونة فاستخلص العبرة من الأحداث التي مرت به، وعموما فقد أمضى تجربة ثرية في مجال التعليم والإعلام والسياسة، ونفس الشيء مر به طلبة الزيتونة من الجزائريين الذين درسوا هناك.

ولهذا لم تخلوا صحف دعاة الإصلاح في الجزائر لاسيما منها الشهاب والبصائر في طرح قضايا الأمة الإسلامية، ومن أكثر القضايا التي كانت تتناول في الصحف الجزائرية هي قضية فلسطين باعتبارها قضية الأمة الأولى، فقد أخذت حيزا معتبرا من صفحات مجلة الشهاب والبصائر، وقد كانت الدعوة صريحة من أصحاب المقالات إلى ضرورة دعم القضية الفلسطينية ماديا ومعنويا، وأن القضية لا تخص الفلسطينيين وحدهم إنما هي قضية كل العالم الإسلامي، باعتبار أنها تحوي المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين.

كما طرحت هذه الصحف قضايا عربية متعددة متعلقة بتونس وليبيا ومصر وما كان يقع في العالم الإسلامي من تحولات وتغيرات، وعموما فإن هذه الصحف كانت ترصد أحوال الأمة العربية والإسلامية، كما كانت تدعوا وبكل صراحة إلى ضرورة توحيد الصفوف بين الشعوب العربية والإسلامية لمواجهة التغريب والإستعمار.

وليس مستبعدا أن زعماء الإصلاح والتجديد في الجزائر قد أخذوا من تلك الفترة في تونس، والتي كانت حبلى بالتحولات والقضايا التي كانت تثار في الصحف ودور هذه الأخيرة في تشكيل رأي عام، لذلك كان التركيز على هذا المجال في الجزائر، فقد كانت سلسلة تفسير القرآن لابن باديس مثلا والتي كانت تدار في المسجد، تنشر في صحيفة الشهاب تحت عنوان مجالس التذاكير، كما كانت مقالات مبارك الميلي في محاربته للطرقية تنشر هي الأخرى في سلسلة على الصحيفة والتي جمعها فيما بعد في كتاب "الشرك ومظاهره".

ولما ظهرت جمعية العلماء المسلمين سنة 1931 اتخذت من الصحافة سلاحا لنشر أفكارها وبث أسلوب عملها والدعاية للعلماء وحركة الإصلاح، وفي عام 1935 أنشأت الجمعية جريدة

---

[1] علي الشابي: "أي تأثير لتونس في شخصية المصلح الجزائري الكبير الإمام عبد الحميد بن باديس"، مجلة الهداية، العدد 154، تونس: أفريل 2003، ص57.

البصائر التي كانت تحمل شعار (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن بصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ)[1] وصارت هي لسان حالها الرسمي في مرحلتها الأولى والثانية، وإذا كانت الشهاب قد اهتمت بجوانب الحياة الدينية والسياسية والفكرية واهتمت بالقضايا الجزائرية والقضايا الإفريقية والإسلامية، وقد كتب في هذه المجلة الكثير من العلماء المصلحين، وقد استمرت هذه الصحيفة حتى نهاية 1939، أما جريدة البصائر فقد كانت ترصد تحركات وأفعال الجمعية كما كانت منبرها الذي توصل به الكلمة إلى شتى أنحاء العالم باعتبار أن الصحافة كانت هي أكثر الوسائل الإعلامية رواجا، وكانت تمثل بالفعل سلاحا فعلا إذا أستغل إستغلالا جيدا، وفي هذا يقول أبو اليقضان: "الجرائد مدارس متجولة ليس محصورة بين جدران ولا يختص بها مكانا دون مكان آخر وهي أوسع دائرة من كل دوائر التعلم، تهذب العامة وترتب أفكار الخاصة وتنهض الهمم القاعدة وتصلح الألسنة الفاسدة وتقرب الأمم المتباعدة وهي سجل الأخبار ووعاء التاريخ"[2].

بذلك فإن نشريات الجمعية وصحفها كانت الرسالة التي تصل يوميا او أسبوعيا إلى كل طبقات الشعب.

خاتمة الفصل:

نستخلص مما سبق ذكره أن أثر جامع الزيتونة في حركة الإصلاح والتجديد بالجزائر كان لافتا في كثير من القضايا، وأن التجربة التونسية بقدر ما كانت نموذجا لتضافر جهود النخبة المثقفة التونسية والجزائر فقد كانت كذلك تجربة للجزائريين الذين درسوا وتعلموا في تونس، والواقع أن هناك تشابه كبير بما كان يحصل في البلدين.

لكن وبقدر ما كان تأثير الزيتونة واضحا على حركة الإصلاح والتجديد في الجزائر فإن الأمر لم يكن محاكاة حرفية بل أن الظروف غالبا ما كانت تصنع الموقف والحدث، رغم أن القضايا التي طرحت هي نفسها التي طرحت في الجزائر، ولعل طبيعة الإستعمار المختلفة في البلدين هي التي أعطت ذلك التباين.

---

[1] سورة آل عمران : الآية

[2] أبو اليقضان: "الصحافة الأهلية في القطر الجزائري"، جريدة الأمة عدد106، جانفي 1937، ص3.

فإذا كانت العلاقة بين الحماية والمؤسسة الدينية والثقافية في تونس قد تميزت بالهدوء والرتابة فإن الأمر كان مختلفا في الجزائر وإلى حد كبير، إذ غالبا ما تميزت العلاقة بالشدة وأحيانا تحولت إلى مواجهة.

وكما أننا نسجل تأثير الجامع الأعظم في حركة الإصلاح الوطنية الجزائرية فإن التأثير كان أحيانا يسير في اتجاه عكسي، فغالبا ما وجهت الحركة الإصلاحية انتقادات للجامع لاسيما في مجال التربية والتعليم، خاصة فيما يتعلق بالمناهج التي كانت بالية ولا تف بالغرض المطلوب.

وفي بعض القضايا قد يكون لدعاة الإصلاح في الجزائر موقفا مناهضا تماما لما ذهب إليه بعض الزيتونيين، كما حصل مع الطاهر الحداد في قضايا المرأة حيث لقي معارضة شديدة من طرف المصلحين.

يمكن أن نستنتج كذلك أن النسق الذي سارت عليه النهضة في تونس هو نفس النسق الذي سارت عليه في الجزائر وقد تأثرت كليهما بالإتجاه الإصلاحي التجديدي الذي تزعمه جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وبحلول العقد الثالث من القرن العشرين، اكتسبت حركة الإصلاح والتجديد في الجزائر تجربة يمكن أن يعتمد عليها لاسيما بظهور جمعية العلماء المسلمين 1931 التي جمعت خيرة مثقفي الجزائر ثقافة إسلامية، هذه الجمعية التي حملت مشعل النهضة والبعث في الجزائر.

الفصل الرابع: موقف الاحتلال والاتجاهات الأخرى من الزيتونيين في تونس والجزائر

أولا: تونـــس

أ-موقف الإحتلال من حركة الإصلاح في تونس

ب-موقف الأحزاب والحركات التونسية من الزيتونيين

1-موقف المحافظين

2-موقف الحزب الدستوري القديم

3-موقف الحزب الدستوري الجديد

ثانيا: الجزائر

أ-موقف سلطة الاحتلال من الزيتونيين الجزائريين وحركةالإصلاح

ب-موقف الاتجاهات من حركات الاصلاح والتجديد

1-موقف حركة النواب

2-موقف الطرق الصوفية

3-موقف دعاة الاستقلال

خاتمة الفصل

موقف الاحتلال والإتجاهات الأخرى من الزيتونيين في تونس والجزائر:

لقد كان لخريجي الزيتونة دورا فعالا في مجالات الحياة سواء في تونس أو الجزائر فلم يقتصر خريجوها من دعاة الإصلاح على تلقي العلم والاكتفاء بالجانب الديني بل أن دورهم كان جليا في الجانب الاجتماعي والفكري والسياسي في تلك الفترة.

ولقد تصدى خريجو الزيتونة للسياسة الإستعمارية بالطرق المباشرة تارة وبطرق غير مباشرة تارة أخرى، تحت ستار الإيحاء والتلميح ورفع اللوائح وتقديم العرائض والاحتجاجات، والشعور بعدم الرضا وأحيانا كانت المواقف تأخذ شكلا مباشرا لمناهضة هذه السياسة، بنشر التعليم في صفوف جميع الشعب وتنظيم الفكر وتوجيهه نحو الطريق الصحيح والتعريف بالقضايا الأساسية، وعلى رأسها التمسك بالشخصية من خلال التاريخ والوطن والدين، وهكذا كان الصدام بين خريجي الزيتونة والاستعمار لا محالة، ولذا فإن مضايقة الإحتلال الفرنسي ومن يدور في فلكه لحركة الإصلاح التجديد كانت جلية اتخذت عدة أساليب كالتوقيف عن المناصب، والنفي والمتابعة والتحقيق ووصلت إلى حد السجن، والتعذيب والاغتيال، وقد حصل هذا مع كثير من علماء الإصلاح والتجديد في تونس والجزائر.

ففي تونس حيث كان الزيتونيون فاعلون في الحركة السياسية والثقافية والدينية فقد واجهوا عقبات من سلطة الحماية الفرنسية أو من سلطة الباي كما واجهت موقفا مخزيا من بعض الأحزاب التونسية.

أما في الجزائر فالواقع أن الاحتلال كان له موقفا صريحا من الزيتونيين الذين تزعموا الحركة الإصلاحية في الجزائر من خلال ردود أفعاله عقب الحرب العالمية الأولى آلي غاية قيام ثورة التحرير 1954.

أولا: تونس

أ -موقف الإحتلال من حركة الإصلاح:

لقد حاولت سلطة الحماية تعطيل البرامج الإصلاحية التي استحدثها المصلحون في الزيتونة خاصة البرامج التي اقترحها محمد الطاهر بن عاشور، فقد رفضت الحماية إنشاء فروع للزيتونة، حتى لا تنتشر أفكارها أكثر في ربوع تونس و تبقى محصورة في مكان ضيق، وقد أدى ذلك إلى

حدوث عدة اضطرابات، كاعتزال الطاهر بن عاشور الجامع سنة 1936 إلى غاية 1945، وأثناء عودته رفض ابن عاشور طرد مجموعة من الطلاب ينتمون إلى "صوت الطالب الزيتوني" [*]، لذلك أبعد الطاهر بن عاشور مرة أخرى وتم إيقافه مع تكليف الشيخ علي النيفر بإدارة المشيخة، ولم يعد الطاهر بن عاشور إلا بعد الإستقلال 1956، وقد عرف بشجاعته وجرأته فهو صاحب المقولة المشهورة: "صدق الله وكذب بورقيبة" في مسألة الإفطار في رمضان.

ضايقت الحماية خريجي من خلال أنها لم تخصص ميزانية مالية من أموال الدولة للتعليم العربي بما فيها التعليم الزيتوني، كما أن الشهادات التي تقدمها الزيتونة لم يكن معترفا بها فآفاق التعليم والعمل معلق في وجه حامليها، فباستثناء الأزهر والزيتونة فالجامعات الأخرى الشرقية والغربية لا تعترف بهذه الشهادات[1].

ولعل عبد العزيز الثعالبي هو أكثر الرجال مضايقة من قبل الحماية حيث أوضح طموح الشعب التونسي من خلال مطالبه فقام الاحتلال باعتقاله في أكتوبر 1920 ودام هذا الاعتقال حوالي تسعة شهور وهذا ما جعله يختار منفاه عام 1923 إلى مصر حتى يظل معتكفا مؤمنا بالقضية الوطنية.[2]

وإذا كان محمد الطاهر بن عاشور وعبد العزيز الثعالبي نموذجين ممن وجدا عراقيل صريحة من الاحتلال فإن السلطات الفرنسية وقفت في وجه حركة الإصلاح الزيتوني منذ إعلانها الحماية على تونس سنة 1881 حيث ارتكزت سياستها على منع تطوير الثقافة القومية ومضايقة اللغة العربية حتى لا تكون أداة النهضة الفكرية بهدف ربط تونس بها وبثقافتها.[3]

إلى جانب ذلك فقد منع الإحتلال الزيتونيين من تقلد الوظائف الإدارية، على اعتبار أنهم ينتمون إلى الثقافة العربية الإسلامية، وليسوا مثقفين بالثقافة الفرنسية، كما واجهت تلك الإضرابات التي قام بها الطلبة في إطار المطالبة بالإصلاح بالتنكيل وسوء المعاملة، وغالبا ما كانت تنتهي إلى السجن أو النفي.

---

[*] منظمة طلابية تونسية من زعمائها محمد بدوي تصدت هذه المنظمة لأعداء الزيتونة من الحزب الدستوري الجديد.

[1] علي الزيدي: "الوضع العام للتعليم الزيتوني حتى إصلاح 1951"، المجلة المغربية، العدد 33-34، تونس: 1984، ص72.

[2] علي محجوبي مرجع سابق، ص155.

[3] محمد الفاضل بن عاشور: مرجع سابق، ص225.

إلى جانب ذلك فقد شنت الحماية دعاية مغرضة من خلال صحفها، لتأليب الرأي العام الفرنسي والعالم على الزيتونة وخريجيها، ووصفهم بالجمود والتصلب وأنهم خاملين وأن مدارسهم لا تقدم أناسا متحضرين، يمكن أن يعول عليهم، وفي لجأ الاحتلال في نفس الوقت إلى مناصرة البدعة والخرافة فأغدق على أصحابها بالأموال، وتأيدهم معنويا، وإعطائهم مكانة ومهابة، رغم علمه بضحالة فكرهم وقصر نضرهم لأن الوضع كان يخدمه ويخدم وجوده، فلقوا بذلك التأييد والمساندة على حساب العلماء الزيتونيين المسلحين بالثقافة والإصلاح الرافضين استمرار الاحتلال مطالبين بتغيير الوضع، كما أن سلطات الاحتلال مارست الضغوطات على الزيتونيين النشطين في الحزب الدستوري القديم، وكان من السهل التركيز على النشطين البارزين من الجزائريين ولعل أبرز الذين تعرضوا للمتابعة والسجن ثم النفي "أحمد توفيق المدني، قدور بن عمر، أبو اليقضان والطيب بن عيسى، حيث نفوا جميعا من تونس بسبب ممارستهم النشاط السياسي والحجة أنهم ليسوا من أصول تونسية.

على هذا النحو تمت متابعة الناشطين في الحزب الدستوري, إما بالسجن أو بالنفي على غرار ما حصل لعبد العزيز الثعالبي الزعيم الأول للحزب.

وبذلك يكون الزيتونيون قد أحرجوا المحتل بطرق شتى ولم يبق أمامه سوى المواجهة المباشرة معهم، خصوصا لما أتضح النهج السياسي واتضحت المطالب من ولوج الوفد التونسي قصر المرايا في فرساي بمناسبة انعقاد مؤتمر الصلح لإيجاد تسوية لمشاكل المستعمرات وعلى رأسها المستعمرات المغاربية.

ب- موقف الحركات والأحزاب التونسية من الزيتونيين:

1) موقف المحافظين: مثل هذا الاتجاه بعض من النخبة التونسية الذين تحركهم المصالح الذاتية الضيقة أكثر من دافع الوطنية والقومية، كما أنهم أصحاب النفوذ الذين ارتبطت مصالحهم ببقاء الوضع خصوصا في ظل تأييد سلطة الحماية باعتبارهم لا يشكلون خطرا عليها، لذلك فأن هؤلاء كانوا يرون التجديد يتنافى مع الدين الإسلامي وقد اتضح موقفهم بعد أن تأكدوا أن حركة الإصلاح التعليمي مقرونة بحركة الإصلاح الديني، فلما انحاز بعض مشايخ الجامع الأعظم إلى حركة

الإصلاح فواجهوا مواجهة عنيدة من قبل المحافظين وذلك عن طريق الصحف من خلال مقالات عبروا فيها عن سخطهم، كما ألقوا محاضرات استنكروا فيها هذا ظهور هذا الاتجاه الجديد.[1]

فجريدة (الحاضرة الزيتونية) عورضت معارضة شديدة من قبل المحافظين باعتبار أنها كانت تحمل أفكار المصلحين وفي نفس الوقت كانت ثورة عليهم بحيث وصفتهم بالجمود ورفض التغيير الذي يخدم الأمة بما يتماشى مع الدين، ولم تسلم حتى توجيهات محمد عبده وجريدة المنار لرشيد رضا باعتبارها وليدة الإصلاح في العالم العربي والإسلامي، وكما هو معروف فإن الحركة الإصلاحية في تونس تأثرت بشكل كبير بالنهج الإصلاحي لمحمد عبده والأفغاني ورشيد رضا.

ولو قارنا بين موقف الحماية من حركة التجديد في تونس لوجدناها أقل حدة مما كان عليه الوضع في الجزائر ولعل ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى نظرة الاحتلال إلى البلدين، فوجوده في تونس كان بمثابة حماية، أما في الجزائر فالاحتلال كان استيطانيا، سعى بكل الأساليب من أجل تغليب العنصر الأوروبي والثقافة الأوروبية على حساب العنصر والثقافة الجزائريين.

وعموما فإن المحافظين تجندوا من أجل محاصرة فكر رشيد رضا ومحمد عبده، وهذا ما اعتمده الشيخ محمد النجار المالكي الذي كان يتابع مجلة المنار وينتقد كل ما يكتب فيها ويقدم الحجج الدينية ضدها[2].

ومن أجل إبعاد الجماهير عن علماء الزيتونة المجددين فقد عمد المحافظون إلى إلصاق التهم وإثارة الفتنة والدعاية الباطلة، فقد اتهم عبد العزيز الثعالبي بالكفر والزندقة، لأنه كان يدعو إلى التطور والتفتح على الحضارة الغربية[3].

لعل هذه الحملة الشنيعة تعود بالدرجة الأولى أنه تناول في مقالاته إشكالية زيارة الأولياء والتقرب بهم والكرامات التي كانت تشاع، وكذلك المأدوبات، فقد رفعت ضده قضية للنيابة العامة وحكم عليه بالسجن لمدة أربعة شهور[4].

وقد تورط المحافظين في محاولة عرقلة عمل بعض الزيتونيين أمثال محمد شاكر الذي عزل من التعليم في سفاقص*، لأنه ببساطة أنكر زيارة قبور الأولياء والتقرب بهم.

---

[1] محمد الفاضل بن عاشور: مرجع سابق، ص73

[2] يوسف مناصرية: مرجع السابق، ص27.

[3] عميرة عليه الصغير: مرجع سابق، ص275.

[4] أحمد خالد: أضواء من البيئة التونسية علي الطاهر الحداد ونضال جيل، الدار التونسية للنشر، تونس: 1979، ص61.

* معهد: فرع من فروع الزيتونة.

وقد صارت كل صيحة تجديدية تعتبر مسلكا غير رشيد حتى لوساير الحداثة والعصرنة دون أن يتعارض مع أصول الدين الكبرى، فقد أتهم أبو القاسم الشابي بالإلحاد وأنه مارق خارج عن الدين خلال إلقاء محاضرة سنة 1929 بالخلدونية كان عنوانها "الخيال الشعري عند العرب" بين أن الأدب العربي خال من الخيال الشعري، وبالتالي هو لا يستطيع مجاراة الشعر الغربي[1].

ونفس التهمة ألصقت بالحداد عند حديثه في شؤون المرأة حيث رأى أن الإصلاح عملا متكاملا يجب أن يمس النساء والرجال على السواء، وأن المجتمع لا يمكنه التحرك إلا بالجنسين مؤكدا على الدور الخطير للمرأة، إلا أن المجددين التفوا من حوله وأقاموا له تكريما حضره العديد من المفكرين[2].

والحق أن نظرة الحداد إلى المرأة والحجاب خاصة شكلت صدمة لدى كثير من العلماء، لاسيما وأنه حاول أن يحمل النص القرآني على غير محمله، ولعل أفكاره هذه هي التي جعلته يقع في هذا المأزق.

وخلاصة القول أن المحافظين كانوا أكثر استياء من دعاة الإصلاح والتجديد وكثير ما كانت تحدث صدامات فكرية لاسيما عند اجتماع رجال إصلاح التعليم الزيتوني، على اعتبار أن مشايخ النظارة كانوا من المحافظين، وفي نفس الوقت كان يتعرض الطلبة الزيتونيون المناهضون للاعتقال[3].

واستغل المحافظين استغلوا نفوذهم كله من اجل الوقف في وجه التجديد والحفاظ على مركزهم الديني والاجتماعي وحتى السياسي، واستعملوا شتى الأساليب من أجل كسب الرهان، والوقع أن سلطة الاحتلال قد وقفت إلى جانبهم ولو معنويا، لأن هذا الفكر كان يخدمهم من عدة وجوه.

في حين أن حركة التجديد والإصلاح كانت فكرة ممقوتة من قبل الحماية، خصوصا وأن إرهاصات العشرينيات كانت تنذر بظهور أول حزب سياسي كان مؤسسه زيتوني، مؤيد للتجديد وكان الأعضاء المقربين منه أغلبهم متخرجين من الزيتونة ينتمون لنفس التيار في حين أن

---

[1] أحمد خالد: المرجع السابق –ص75

[2] الطاهر عبد الله: الحركة الوطنية التونسية 1830-1956، ط1، مكتبة الجماهير، بيروت: 1976، ص69-70.

[3] أحمد خالد: المرجع نفسه، ص35

المحافظين* ظل فكرهم بعيد تماما عن هذا التصور، ومنطقيا في هذه الحال أن يكون موقف الحماية وسلطة الباي إلى جانب المحافظين.

ولو أن أنصار التجديد فرضوا رأيهم وأفكارهم، مستجيبين بذلك لمتطلبات العصر، وأن لبعض المشايخ أمثال الطاهر بن عاشور دورا بارزا في دفع حركة التجديد والإصلاح وهكذا تلاحمت فئات الشباب بالشيوخ العارفين بحل لغز الاحتلال وسياسته الأخطوبوطية التي تمكنت من القبع على الأنفاس وتكميم الأفواه لاستغلال البلاد والعباد ردحا من الزمن.

2) موقف الحزب الدستوري القديم:

لقد عرفت الزيتونة بأنها منارة تونس العلمية والثقافية ولعل ذلك يعود إلى أنها أول صرح إسلامي يلجا إليه أبناء كل طبقات الشعب التونسي الفقير والغني، كما أنها كانت مدرسة جامعة يتعلم الصغار والكبار، فمن حفظ القرآن الكريم إلى غاية التحصيل والأهلية، فالتطويع وظلت الزيتونة ذات قداسة ومكانة لدى السلطة التونسية ولم تتعرض للتدخل المباشر على عكس ما حدث في بلدان أخرى كالجزائر مثلا حيث تعرضت الدور الإسلامية للدوس والتحوير، وحولت المساجد وبعض الزوايا عن مقاصدها.

فجامع الزيتونة كان له الفضل في تخريج أغلب النخب التونسية على اختلاف توجهاتها كما تخرجت منه النخبة الإسلامية الجزائرية لذلك يعتبر المنبع الأول لأي توجه علمي أو فكري وحتى سياسي.

فحينما بدأت بوادر العمل السياسي في بداية القرن العشرين عن طريق تقديم العرائض والمطالب فإن الذي تزعم الوفد التونسي كان عبد العزيز الثعالبي وهو من خريجي الزيتونة وعندما ظهر الحزب الدستوري 1920 كان الثعالبي على رأسه وكان أغلب أعضاء الحزب من خريجي الزيتونة أو ممن درسوا فيه بل أن الزيتونة كانت هي المكان الأول الذي تثار فيه القضايا ويقرر فيه الحزب قضاياه، يقول توفيق المدني: "كنت في دوائر الزيتونة المبشر الرسمي لتلك

---

* المحافظون: قد يحدث تداخل في مصطلح المحافظين والمجددين من الزيتونيين، لا سيما في تونس، فالإختلاف بينهما يعود بالدرجة الأولى إلى طبيعة فكر وتوجه الشخص، فقد يكون الشخص نفسه محافظا في مسألة ومجددا في مسألة أخرى، كما حصل مع الطاهر بن عاشور مثلا في مسألتي التعليم والمرأة.

المهمة الصالحة بين أوساط الطلبة صغارا وكبارا وذلك بحكم اتصال وثيق بقادة الحركة من أمثال محمد التليلي، محمد بن عمار وصالح بن يحي وكنت أستقي الأخبار منهم مباشرة"[1].

وعموما فإن الحزب الدستوري القديم قد ولد من زخم الزيتونة والصادقية من النخبة المثقفة ثقافة عربية إسلامية وهي التي بادرت إلى العمل السياسي المنظم.

3) موقف الحزب الدستوري الجديد:

لقد اعتبرت نضالات الزيتونة في عيون الدستوريين مثيرة للشغب، ومعرقلة لمسار الحزب الجديد وحكومة (شنيق) في مفاوضاتها مع فرنسا، ومن هنا اشتد الصراع بينه وبين لجنة صوت الطالب الزيتوني[*].

والحق أن الصدامات بين الدستوريين والزيتونيين بدأت تبرز قبل تشكل وزارة شنيق، ففي جانفي 1950 حصلت مناوشات وتبادل العنف بين أنصار الفاضل بن عاشور وبعض أنصار الحزب الجديد، وكادت هذه المناوشات أن تتحول إلى صدامات عنيفة لولا تدخل التجار وأعيان المنطقة[2].

كذلك أحداث 14 و15 ماي 1951 والتي حدثت عندما منع أنصار صوت الطالب من الاحتفال بعيد العرش، وقد أسفرت هذه المواجهات عن جرح حوالي خمسين شخصا.

وقد بلغت الصراعات أقصاها عندما سعت مجموعة تنتمي للحزب الدستوري الجديد إلى محاولة تسميم مائتي طالب زيتوني في المدرسة المنتصرية وذلك عام 1951 من شهر نوفمبر[3].

وقد اتهمت لجنة صوت الطالب الزيتوني عناصر الكتلة التابعة للحزب الدستوري الجديد بهذه العملية، وقد وقفت الأحزاب الأخرى مع صوت الطالب.

هكذا صار الحزب الدستوري الجديد الذي نمت في داخله النزعة التغريبية وسعى إلى قيادة كل الحركات الوطنية غير معترف بتواجد مجموعة طلابية خارجة عن نطاقه ولا تشاركه أرائه السياسية والثقافية، هذا من جهة.

---

[1] أحمد توفيق المدني: مصدر سابق، ص162.

[*] صوت الطالب الزيتوني.، صدرت سنة 1950 إلى 1952، اهتمت بقضايا الطلبة الزيتونيين ونضالهم في مجال الإصلاح والقضايا الإجتماعية.

[2] Kraiem Mosthapha: La classe ouvrière et la lutte de libération nationale, Tunisie : 1980 –P337.

[3] الأرشيف: عدد4، الورقة 800، التقرير السياسي، تونس: نوفمبر 1951.

ومن جهة أخرى لم تكن لجنة صوت الطالب مستعدة للانخراط في المشروع الثقافي الذي يطمح إليه الدستوريون لأنه يتناقض مع أرائهم، لذلك لم يكن التمسك باستقلالية اللجنة مرده فقط الدفاع عن الهوية الثقافية العربية الإسلامية والتي اعتبرت اللجنة نفسها الحامل الوحيد للوائها، بل كذلك التحول إلى مجموعات فاعلة في مشروع تونس المستقلة وجعلها مندرجة بالأساس في إطار أبعادها العربية الإسلامية[1].

من جانب آخر فإن الحزب الدستوري الجديد الذي تزعمه الحبيب بورقيبة الحاصل على شهادة القانون من فرنسا، والذي كان ذا ثقافة فرنسية ورغم أنه كان محاطا بذوي الثقافة الزيتونية الإسلامية أمثال صالح بن يوسف الذي يعد الرقم الأصعب في الحزب.

والأكيد أن الزيتونيون قد ظلوا أوفياء للعمل السياسي سواء في الحزب القديم أو الجديد إلا أن الحبيب بورقيبة فرض نفوذه السياسي من خلال الاستناد إلى العمال فأنشأ نقابات في تونس وعمل على تجنيدهم، وكان أغلبهم قد أنظموا إلى الحزب الشيوعي الفرنسي فمثل بذلك بورقيبة القائد الاجتماعي الوطني من أجل تكتيل المجهودات والقوى الوطنية التقدمية، أما بالنسبة لصالح بن يوسف فإن الأمر كان مغايرا تماما، رغم أنه كان العنصر الأكثر فاعلية في الحزب[2].

فهو الذي دعا إلى مؤتمر صيفي في 23 أوت 1946 حيث اشترك فيه ممثلون عن اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري القديم والنقابات العمالية في تونس، واتحاد الموظفين وإتحاد الطلبة لجامع الزيتونة، وقد أصدر المؤتمر قراراته على شكل ميثاق وطني أعلن سقوط الحماية، وكان هذا أهم قرار تصل إليه الحركة السياسية والجمعوية في تونس، ومما أصر عليه المؤتمر هو عروبة تونس وانضمامها إلى الجامعة العربية وكان هذا الإصرار من قبل الاتجاه العربي واتجاه الحزب القديم من قبل صالح بن يوسف رجل التحرير والذي كان يلقي خطبه في جامع الزيتونة[3].

وللتدليل على ارتباط اتجاه صالح بن يوسف بالحركة الإسلامية الزيتونية حينما وضع بورقيبة يده على تونس المستقلة بعد مفاوضات وسياسة خذ وطالب فإن بن يوسف واصل الخطب في المسجد الأعظم وأعلن أن معركة المغرب العربي الكبير هي معركة واحدة ضد الاستعمار ولا

---

[1] سمير البكوش: "النضال الزيتوني في الخمسينات من خلال أحداث 15 مارس 1951"، الزيتونة الدين والمجتمع والحركات الوطنية في المغرب العربي، منشورات المعهد الأعلى في تاريخ الحركة الوطنية، العدد11، تونس:2002، ص371.

[2] جلال يحي: مرجع سابق ، ج4، ص253.

[3] المرجع نفسه، ص297.

يمكن القبول بأي استقلال داخلي أو جزئي أو إقليمي إلا إذا تم الاستقلال من حدود المغرب إلى حدود مصر[1].

ولعل الخلاف الذي نشب بين الزعيمين (بورقيبة وبن يوسف) مرده اعتماد هذا الأخير على العناصر العربية الإسلامية من خريجي الزيتونة وهذا ما جعل بورقيبة يصر على سياسة العلمنة في السياسة والدين ويبدو أن المعركة ليست معركة قيادة بقدر ما كانت معركة ثقافية أدت ببورقيبة إلى غلق الجامع وتحويله إلى جامعة مختصة بالتعليم العام سميت بالجامعة الزيتونية بحجة أن عدد الطلبة تقلص إلى ثلاث مائة طالب فقط.

في حين أن عدد الطلبة الزيتونيون كان عددهم سنة 1956 حوالي سبع وعشرون ألف طالب موزعين على كامل التراب الوطني، وفي عام 1961 حولت جامعة الزيتونة إلى كلية تابعة لجامعة تونس بمقتضى أمر رئاسي ثم معهدا تابع لكلية الآداب.

---

[1] المرجع نفسه، ص311.

ثانيا: الجزائر

موقف سلطة الاحتلال والاتجاهات الأخرى من الزيتونيين الجزائريين وحركة الإصلاح والتجديد:

أ -موقف الاحتلال من خريجي الزيتونة في الجزائر :

لقد أدرك الاحتلال الدور الذي قام به الشيخ عبد الحميد بن باديس ومن كان حوله أمثال إبراهيم أطفيش وتوفيق المدني، ومبارك الميلي وغيرهم كثير، لاسيما في مجال الحركة العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية، ثم تزايد هذا النشاط بعد نهاية الحرب العالمية الثانية خصوصا في ظل التحولات الكبرى التي طرأت على العالم *، وباعتبار أن هذه المجموعة هي التي راحت تنشر نور العلم في أوساط الشعب الجزائري وتعريفه بشخصيته وانتمائه ونسبه، بعد أن مر بفترة ظلام وتيه وجهل.

فقد استدرج الاستعمار بعض الفئات الجزائرية لتؤيده وتساعده على إتمام مهمته على أكمل وجه، فسخر أصحاب الطرق الصوفية والزوايا والطرقيين الذين كانوا يمثلون الدين في البلاد، هؤلاء الذين تفانوا في خدمته مقابل الحفاظ على مصالح دنيوية وتوسيع أملاكهم.

وقد اتضح من خلال خطابات وكتابات الصحف بعد الحرب العالمية الأولى أن دعوة هذه الصفوة من الأمة إنما كان هدفها سياسي حركي، ظهر هذا كذلك في شعاراتها وأهدافها حتى وإن لم ترد هي الإفصاح عن ذلك، غير أنه في فترة الثلاثينات والأربعينات وفي ظل تبلور الوعي السياسي مع تزايد نشاط الحركة الوطنية في اتجاهها الاندماجي الممثل من طرف النخبة المفرنسة، والاتجاه الاستقلالي.

في ظل ذلك ازداد نشاط العلماء وصار أكثر وضوحا، لاسيما وأن هيئة جمعية العلماء المسلمين وحدت نهجهم وهدفهم، وأن النتائج التي تحققت خلال عقدين من الزمن كانت باهرة، ولم يكن الاحتلال يتوقع ذلك فهذا ديبارمي جوزيف يصرح عام 1932 يقول :"إن أهداف جمعية العلماء تتمثل في فهم لغة القرآن والعودة إلى الثقافة الإسلامية القديمة، واعتبار المغرب العربي كقلعة للعبقرية الشرقية في وجه الغرب المسيحي ... إلى أن يقول: وأن كلمة السر تعلموا توحدوا"[1].

---

* عرف العالم بعد الحرب العالمية الثانية انتشار موجة التحرر لاسيما في آسيا، حيث استقلت سوريا ولبنان سنة 1946 ثم تبعتها دولا عربية أخرى.

[1] ديبارمي: القادة في إفريقيا الفرنسية، يناير 1930-ص15، 16.

ويقول شارل أوندري جوليان: "إن العلماء كانوا يعملون لتطهير الإسلام وتكوين كيان جزائري قائم على الثقافة العربية الإسلامية"[1].

نظرا لكل هذه الاعتبارات سلك الاحتلال تجاههم سياسة خاصة من أجل توقيف قاطرتهم، وكبح جماحهم معتمدا طرق شتى لعل أبرزها كما تذكره المصادر المختلفة والتي اهتمت بهذا الجانب:

– تعطيل الصحف: بدءا بالمنتقد التي أنشأها الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة 1925، ثم الصحف التي صدرت بعدها: الشهاب والسنة، فكلما لاحظ الاحتلال أن هناك نقدا في هذه الصحف لا تتماشى ومصالحه، إلا وأسرع إلى مصادرة العدد ثم تعطيله نهائيا، هذا ما يؤدي بزعماء الإصلاح إلى بعث أعداد جديدة بأسماء أخرى، ولعل الصحيفة الوحيدة التي لم تصل إليها أيدي التعطيل حتى وان كانت تخضع للرقابة الشديدة هي مجلة الشهاب ثم جريدة البصائر الأسبوعية والتي كانت لسان حال جمعية العلماء المسلمين.

ومن المعروف أن جمعية العلماء المسلمين حينما خاضت ميدان الصحافة أنشأت صحيفة باسم (السنة) فلما أوقفتها الحكومة كونت أخرى باسم (الشريعة) فلما صدر قرار بتوقيفها عوضتها الثالثة تحمل عنوان (الصراط) فلما أدركها المنع خلفتها (البصائر), وكانت الجمعية تحتج دوما على هذا الحيف[2].

من جانب آخر تعرض زعماء الحركة للمضايقات والمتابعات طيلة كل تلك الفترة ولعل أكثرهم عرضة لهذه النوائب هو الشيخ ابن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي الذي استعمل ضده النفي تارة، والإقامة الجبرية تارة أخرى.

سعى الاحتلال كذلك إلى تعطيل المدارس العربية ومنع الاجتماعات والمحاضرات التي كانت تدار وتعقد في المساجد.

كما أصدرت النيابة العامة لعمالة العاصمة بإلحاح من الطرق الصوفية من اجل التدخل السافر ضد جمعية العلماء فكان أن أصدرت دار عمالة العاصمة préfecture d'Alger تعميمين

---

[1] شارل أندري جوليان: مرجع سابق –ص114
[2] محمد خير الدين: مرجع سابق، ص296.

رسميين عرفا بتعميمي ميشال :"Circulaires Michel" صدر الأول في 1933/12/16 والثاني في 133/12/18[1].

وقد امتد مفعول هذين التعميمين ليشملا كافة المناطق الجزائرية، كان من نتائجهما وقف دروس الوعظ والإرشاد نهائيا في المساجد وإغلاق الكثير من مدارس الجمعية خاصة في عمالة وهران مركز ثقل الطرقيين، ورفضت الطلبات المقدمة لفتح مدارس إصلاحية أخرى وقد حجرت على حركة تنقل بعض أعضاء الجمعية وفرضت أحكام بالسجن على البعض الآخر[2].

ونتيجة لهذه الإجراءات الإدارية توقفت دروس الوعظ والإرشاد التي كان يلقيها الشيخ الطيب العقبي في مساجد العاصمة خاصة الجامع الجديد[3].

كما توقفت مواعظ كثيرة في بقية مساجد القطر، وقد احتج الشهاب بشدة متسائلا عن هذه القرارات المستفزة وحسب ما جاء فيها: "انه تعديا على الحقوق الدينية العامة للمسلمين في المساجد، وطلبت من المسلمين التزام الهدوء والسكينة وترك الأمر يأخذ مجراه النظامي السليم[4].

وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية فرضت الإدارة رقابة على الصحف وطلبت ببيانات رسمية وتعليقات مؤيدة لفرنسا كما فرضت على ابن باديس الإقامة الجبرية في منزله، وتم نفي الشيخ الإبراهيمي إلى أفلو، بعيدا عن تلمسان، ولم يمنعه النفي من متابعة نشاطه الإصلاحي، ثم أعيد اعتقاله في 13 ماي 1945 بعد مذبحة 8 ماي 1945 واستمر سجنه مع عدد من أعضاء الجمعية والأحزاب الوطنية حتى شهر مارس 1946، حيث أفرج عنهم بموجب عفو عام، يذكر أبو القاسم سعد الله:"عقب أحداث 8 ماي حلت الإدارة جبهة أحباب البيان والحرية واعتقلت الزعماء، عباس فرحات والإبراهيمي وعشرات الآلاف من رجال الجمعية وأنصارها، وأتباع الحركة الوطنية[5]".

وقد كان تحامل المحتل على الجمعية بكل الوسائل والطرق، وكما جاء في جريدة البصائر (فقد كانت الجمعية مضطهدة من الحكومة ومعاتبة في أعمالها من أول نشأتها، وكان ما تنقمه

---

[1] محمد خير الدين: المصدر السابق، ج2، ص297.
[2] عبد الكريم بوصصفصاف: جمعية العلماء المسلمين، ص149.
[3] مجلة الشهاب: ج4، م9، مارس 1933 –ص189.
[4] المصدر نفسه، المكان نفسه، ص189.
[5] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، نقلا عن مجلة فرنسا الحرة باللغة الإنجليزية، ج5، عدد6، 1944، ص253.

الحكومة عليها، بعثها النهضة العلمية والدينية في الأمة الجزائرية بعد طول رقادها ويأس القانطين[1].

والمعروف أن العلماء قد منعوا من إلقاء دروس الوعظ والإرشاد في المساجد التي كانت تخضع لسيطرة الإدارة الفرنسية، وبلغت مضايقة ابن باديس بأن أستدعي إلى دار العمالة بأمر من الحاكم العام على أنه يعلم في الجامع الخضر بدون ترخيص، وقد رد ابن باديس في مجلة الشهاب بمقال تحت عنوان "بعد عشرين سنة من التعليم نسأل هل عندنا رخصة؟ " ومما جاء في المقال (المسألة ليست مسألة عبد الحمد ابن باديس ولكنها مسألة التعلم الديني واللساني للمسلمين ومسألة مائة طالب جاؤوا من العمالات الثلاث)[2].

وبلغت محاربة فرنسا للتعليم العربي والثقافة الإسلامية ذروتها بإصدار قرار 8 ماي 1938 من طرف وزير الداخلية، هذا القرار الذي يمنع اللغة والتعليم العربي واعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر.

وقد جاء في جريدة البصائر مقالا لابن باديس في هذه المسألة يقول فيه: "إن أعداءنا علموا أن لا بقاء إلا بتعلم عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه فناصبوا تعليمها العداء وتعرضوا لمن يتعاطى ذلك التعليم بالمكروه والبلاء فمضت سنوات في غلق المكاتب القرآنية ومكاتب التعليم الديني العربي ولم يبقوا منها إلا على الأقل القليل"[3].

لكن صلابة حركة الإصلاح والتجديد واصلت العمل لا تخشى في الله لومة لائم تعلم أنها على الدرب الصحيح.

والخلاصة أن موقف الإدارة الفرنسية من حركة الإصلاح وجمعيتهم، على الرغم أن هذه الجمعية كانت قد أنشئت بموافقة فرنسا وكان ثلث أعضائها من الطرقيين والمواليين للحكومة، وما قبل هؤلاء الدخول فيها إلا لتمرير الفرصة على الاحتلال، فكما يقول أبو القاسم سعد الله: "كانت الجمعية في سيرها تمشي على حبل رقيق فهي تأمل وتحتج وتسخط على إدارة فرنسا في الجزائر، وتثق في ديمقراطية فرنسا في أوروبا، وتطالب بالحرية والإستقلال للجزائر، وتثور على رجال الدين الذين تستعملهم فرنسا، وتدعوا إلى وحدة رجال الدين وتحذر النواب والنخبة من مغبة

---

[1] البصائر: السنة الأولى، العدد46، نوفمبر 1936، ص366.
[2] مجلة الصراط: السنة الأولى، العدد7، ص6.
[3] جريدة البصائر: السنة الثانية 8 أفريل 1938.

الإندماج، والمطالبة بالمساواة في الحقوق، وتستنجد بهم ضد الإدارة في منع صحفها وعلمائها ومساجدها من ممارسة نشاطها، ولا تتردد الجمعية إذا ما اقتضت الضرورة أن تتحالف حتى مع الشيوعيين والفاشيين واليهود ضد الإدارة الفرنسية ولعل هذا التكتيك هو الذي جعل الجمعية محل نقد ممن لا يفهم حقيقة خطتها"[1].

والخلاصة أن المحتل أصدر قرارات نجملها في النقاط التالية:

1- إصدار قرارات بتعطيل جريدة السنة لسان حال جمعية العلماء المسلمين والجرائد الأخرى التي يصدرها الأفراد والتي كانت تمت بصلة لفكرة الإصلاح[*].

2- منع الشيخ الطيب العقبي وأئمة المساجد من إلقاء دروسه الدينية العادية في المساجد في العاصمة وضواحيها.

3- إعادة التذكير بالأوامر والقرارات السابقة التي تمنع تعلم القرآن وتعلم الدين الإسلامي واللغة العربية إلا برخصة من السلطة المحلية.

4- فرض حصار على حركة الإصلاح ورموزها فقد سحبت الرخصة من ابن باديس حيث كان يدرس طلبته بالجامع الأخضر.

5- لجوء الاستعمار إلى تجنيد أعوانه من موظفي السلك الديني ورؤساء الزوايا والمرابطين وبعض أعوانهم من نواب المجالس المختلفة من المسلمين ووعدهم بالأموال وتدعيمه لصحفهم من أجل محاربة المصلحين.

6- فتح أبواب السجون للعلماء وأنصارهم من رجال الحركة الإصلاحية واستخدام الحرب النفسية ضدهم، ونشر الإشاعات حولهم التي يمكن أن تفوت على عقول العامة من البسطاء، ومن بين ما أشاعوا مثلا أن المصلحين يعادون الأولياء وينكرون الوسيلة والكرامات.

7- حرص المستعمر على تدبير المكائد لرجال الإصلاح والعمل على إبعادهم عن الجمعية لتكون خالصة للحكومة وأعوانها، وإن لم يتمكنوا من ذلك لجأوا إلى زرع الفتن في أوساطها

---

[1] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الحركة الوطنية ج2، مرجع سابق، ص88، 89 عن روبار أجيرون أصول حرب الجزائر –ص76، 77.

[*] عطلت فرنسا الصحف والجرائد التي كان يصدرها أبو اليقضان كوادي ميزاب، النور، الأمة والمغرب العربي للزاهري.

باختلاق التهم للرجال الصادقين كما حدث للطيب العقبي في مسألة مقتل كحول ومحاولة الشيخ أحمد بن عليوة رئيس الطرقية الذي حاول أعوانه إحتواء إدارة الجمعية وإثارة الفتنة[1].

ولما اندلعت الثورة التحريرية الكبرى أقدمت فرنسا مباشرة على تعطيل كل المؤسسات التعليمية وعقدت النية على توقيف بعضها خاصة وأن الظروف الأمنية كانت مناسبة (الظروف الطارئة في الجزائر بسبب الثورة) فأغلقت الكثير من المدارس التابعة لجمعية العلماء كما أغلق معهد ابن باديس وحوصرت الزوايا التي كانت تميل للفكر الإصلاحي فما كان من النخبة الإسلامية إلا الالتحاق بالثورة سواء عن طريق التجند المباشر أو اللجوء إلى الخارج خاصة مصر وتونس، وهنالك كانت أقلامهم أحد من السيوف لفضح السياسة الاستعمارية والتعريف بالمسألة الجزائرية وثورتها المشروعة.

والحقيقة أن التاريخ يثبت أن الإصلاحيين كانوا ممن جاهدوا بأنفسهم وأموالهم من أجل الوطن ومستقبله ومن أمثلة على ذلك محمد رضا حوحو، محمد الأخضر السائحي، عبد الله شريط، مفدي زكرياء وغيرهم ألوف، دافعوا بكل ما يملكون من أجل الجزائر وعروبتها وإسلامها، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ظل شاهرا قلمه على كل فساد ومنكر.

موقف الاتجاهات السياسية والفكرية من حركة الإصلاح والتجديد في الجزائر

يجمع الباحثون أن جميع الاتجاهات السياسية والفكرية في الجزائر كانت قد ظهرت في العشرينات من القرن العشرين، وأن الحركة الوطنية كان وراءها تراث عظيم من عهد النهضة ثم من تجربة غنية جاءت نتيجة لطريق طويل من المحاولة والخطأ، ولم تكن التجربة التي خاضها زعماء الحركة على اختلاف اتجاهاتهم مصدر وحي من الخارج، بقدر ما كان عاملا مساعدا، فكثير من الزعماء كانوا يلتفتون إلى العقود السالفة فيتذكرون حمدان خوجة وحملته ضد الاستعمار والأمير عبد القادر ومسيرته الطويلة والمقراني وبوعمامة ومحاربتهما للمحتل، والنهضة وزخمها الثقافي، فالأرض التي كانت تقف عليها الحركة الوطنية كانت غنية جدا، قادرة على أن توحي للزعماء التجديد أن يحددوا أهدافهم ويقيمونها على قاعدة ثابتة[2].

---

[1] محمد خير الدين: مرجع سابق ، ص111، 112.
[2] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، مرجع سابق، ص431.

ومع بداية الثلاثينات تبلورت فيها هوية التيارات السياسية الوطنية بوضوح إذ يمكن أن نميز ثلاثة اتجاهات كبرى:

الاتجاه الإدماجي (اليمين): وهو الذي مثلته النخبة والمثقفين ثقافة فرنسية، إضافة إلى الطرقية والصوفية.

الاتجاه الاستقلالي (اليسار): وهم الذين عرفوا بدعوتهم الصريحة للاستقلال ومثلهم نجم شمال إفريقيا.

الاتجاه الإصلاحي (الوسط): والذي مثلته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.[1]

1) موقف اتحادية المنتخبين المسلمين الجزائريين (اليمين)

لقد ضم كما هو معروف المثقفين الجزائريين والذين عرفوا بالنخبة، ومن أبرز زعماء هذا الاتجاه: الدكتور ابن جلول، وابن التومي، وفرحات عباس، وقد كانت دعوة هؤلاء تقوم أساسا على المساواة والمطالبة بنفس الحقوق الفرنسية، ولن يتم ذلك في نظرهم إلا بالاندماج مع فرنسا، وقد بين ذلك فرحات عباس في كتابه ليل الاستعمار: (-احترام الحضارة الإسلامية واللغة العربية – التخلي عن التمييز العنصري – المساواة في الحقوق السياسية بين الجزائريين والمستوطنين)، وقد كان نشاطهم يقوم أساسا على محاربة الجهل والفقر وإنقاص الشعب من التخلف وتوفير فرص العمل[2].

أما موقف هذه النخبة من دعاة الإصلاح والتجديد فيمكن أن نميز فيها مرحلتين مختلفتين.

فالمرحلة الأولى التي امتدت من العشرينات حتى منتصف الحرب العالمية الثانية حيث كانت هذه الفئة تثير قضايا ظلت تشكل خطوطا حمراء بالنسبة لدعاة الإصلاح والتجديد أهمها:

مسألة التجنس والمطالبة بالإدماج الكلي والتخلي عن الشخصية الإسلامية والوطنية وقد عارض العلماء مسألة الإلحاق، حيث كانت ردود ابن باديس واضحة وصريحة.

وقد نظر النواب إلى الجزائريين على أنهم فرنسيون سواء كانوا يتمتعون بالحقوق المدنية أم لا، وسواء أكانوا متعلمين أم أميين، وكما قالوا أن الدين لا دخل له في الجنسية التي لا يمكن أن تكون سوى فرنسية[3].

---

[1] عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين، مرجع سابق ، ص232.
[2] فرحات عباس: ليل الإستعمار مطبعة فوضالة، المحمدية المغرب، د.ت، ص145،144
[3] أبو القاسم سعد الله:تاريخ الحركة الوطنية، ج3، مرجع سابق، ص64.

ظل النواب يحذرون العامة من الجزائريين من دعاة الاتجاه العربي الإسلامي، ودعوا في نفس الوقت لتعلم اللغة الفرنسية فهي الأداة الوحيدة للحياة العصرية.

والحق أن في هذه المواقف دعوة صريحة للوقوف في وجه دعاة الإصلاح والتجديد، الذين اعتبروا أن التجنس كفر، والتخلي عن الوطنية خيانة، كما أن المساس باللغة العربية وتمجيد اللغة الفرنسية تخلي عن الشخصية والقومية.

من جانب آخر فإن بعض النواب كـ(ابن علال) الذي طالب من الإدارة الفرنسية بضرورة منع العلماء من الوعظ والإرشاد في المساجد[1].

وعموما فإن الجمعية كانت عنيفة في وجه دعاة الإدماج الذين حاولوا إقناع الجماهير بأن فرنسا هي الوطن الأم، وأن الجزائر فرنسية كما جاء ذلك في مقال لفرحات عباس تحت عنوان: "فرنسا هي أنا"[2]، وقد تصدى لها ابن باديس بكل جرأة.

أما المرحلة الثانية والتي تبدأ من سنة 1936 أي منذ المؤتمر الإسلامي، حيث عين ابن جلول رئيسا له، فقد تميزت بالود تارة والمشاحنة تارة أخرى، فكانت العلاقة بينهما بين شد ومد تتأثر بالأحداث والوقائع.

وخلال الحرب العالمية الثانية تجدد التقارب مع إعلان البيان المشهور (بيان فيفري 1943) ويبدوا واضحا أن للاستعمار دور كبير في هذا التقارب من خلال رفضه لأي إصلاحات أو حتى الوفاء بالوعود التي قطعها على نفسه خلال الحربين، وبذلك وجد النواب والعلماء أنفسهم في دائرة واحدة وأمام قضية واحدة.

2) موقف الطرقيين: يجب أن نذكر هنا أن موقف الفصيل الثاني من هذا التيار هم الطرقيين الذين كانوا يدعون إلى الإدماج، فقد سبق وأن أشرنا إلى موقفهم من خلال حديثنا عن الطرقية وأساليبها في التصدي لحركات التجديد، ويكفي أن نذكر أنهم كانوا من أكثر المعادين لحركة الإصلاح باعتمادهم أساليب يمكن أن نجملها في النقاط التالية:

- الاعتماد على الصحف التي أنشؤوها بغرض الرد على دعاة الإصلاح والتجديد ومحاولة تشويه كل ما يصدره العلماء.

---

[1] عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص238.
[2] فرحات عباس: "فرنسا هي أنا"، جريدة الوفاق الفرنسي الإسلامي، عدد 34، سنة 1934.

-فرض دعاية مغرضة والتقرب للاحتلال على حساب العلماء.

-ترتيب الدسائس والمكائد ومحاولات الاغتيالات كالتي قاموا بها في قسنطينة (محاولة اغتيال الشيخ ابن باديس)، واتهام العقبي في مسألة مقتل كحول وغيرها من المحاولات التي لاتعد ولا تحص.[1]

-سعيهم الدؤوب لإذكاء نار الفتنة بين العلماء والاستعمار.

-الوقوف في وجه النهضة والتطور الذي جاء به المصلحون واعتبارهم خارجين عن الدين، فقد كانوا ينعتون ابن باديس بإبليس مثلا.

والحق أن دعاة الإصلاح والتجديد قد وجهوا جهودهم لتوقيف هذه الفئة الضالة وحاربتهم بكل ما أوتيت من جهد، وتخصص رجال في فضح هؤلاء المتطفلين على الدين أمام الجماهير، فزعزعت بذلك دعوتهم وأفل نجمهم، وخسروا المعركة على جميع الأصعدة، فخسروا الاستعمار وخسروا الشعب والأهم من هذا وذاك فقد خسروا آخرتهم مع الله.[2]

3) موقف التيار الاستقلالي:

من المعروف أن هذا الاتجاه ظهر بفرنسا عام 1926 من طرف العمال والطلبة وقدماء المحاربين وكان أعضاؤه في أول عهده من الجزائريين والمغاربة والتونسيين ولكن مع مرور الزمن أضحى منظمة جزائرية خالصة[3].

وكان هدف هذا الاتجاه منذ الوهلة الأولى هو تحقيق الاستقلال، حتى وإن تظاهر بالمطالب العمالية والاجتماعية والثقافية، وفي سنة 1933 عاد نجم شمال إفريقيا للظهور بعد حله وقد تضمن برنامجه مطالب صريحة بالاستقلال التام، هذه المطالب التي عرفت بالثورية، وفي سنة 1937 تسربت أفكار الحزب إلى الوسط الجزائري بعد أن صار يعرف بحزب الشعب الذي أستقطب أكبر فئة من الجماهير الجزائرية[4].

والحق أن زعماؤه لم يسلموا من مواجهات شديدة من طرف الاحتلال، فقد تعرض الحزب للحل لعدة مرات والزج بزعمائه في السجون.

---

[1] أحمد حماني: مصدر سابق، ج1، ص88.
[2] المصدر نفسه: ص98.
[3] وأبو القاسم سعد الله: تاريخ الحركة الوطنية، ج2، مرجع سابق، ص426.
[4] عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين، مرجع سابق، ص224.

أما العلاقة بينه وبين دعاة الإصلاح والتجديد فقد تميزت بالتجاذب تارة والانشطار تارة أخرى، فقد اتهم هذا الاتجاه دعاة الإصلاح بالهدوء والقبول بالمساواة، وكان هذا في نظرهم يتنافى تماما مع مطالب الاستقلاليين، فقد انتقد نجم شمال إفريقيا بشدة المؤتمر الإسلامي 1936، حيث ألقى مصالي الحاج خطابا أمام تجمع جماهيري أنكر على المؤتمر التحدث باسم الشعب الجزائري والتعبير عن إرادته[1].

ويبدوا واضحا أن النجم أو حزب الشعب كما صار يعرف كانت أطروحاته أكثر واقعية وكان يرى ضرورة الإسراع في اقتحام الميدان.

وفي العموم فإن دعاة الاستقلال وحركة الإصلاح كانوا يلتقون حول نقاط كثيرة، وقد يلجأ طرف إلى مساندة الطرف الآخر أحيانا، كما حصل عندما تم اعتقال الطيب العقبي بعد عودته من باريس خلال انعقاد المؤتمر الإسلامي (1936)، حيث أقدم النجم على تنظيم مظاهرة بسبب اعتقال الطيب العقبي وغلق نادي الترقي[2]، وفي المقابل أثار قرار اعتقال مصالي الحاج في أوت 1937 موجة من السخط والاستياء من قبل العلماء[3].

والحق أن كل من العلماء وحزب الشعب اتهموا من قبل المحتل بالتعاون مع الإيطاليين والألمان خلال الحرب العالمية الثانية وإقامة علاقات غير مشروعة مع العدو.

وهكذا فإن موقف دعاة الاستقلال لم يكن لهم تلك المواقف السلبية من دعاة الإصلاح والتجديد، ويتبين أن العمل أحيانا من قبل هذا التيار أو ذاك لا يكون دائما متناقضا إنما قد يكون متكاملا، وبقدر ما كان دعاة الاستقلال يعملون سياسيا من خلال تأطير العمال والطبقة الكادحة من اجل التحرر فإن علماء الإصلاح كانوا يعملون من أجل تحرير البلاد عن طريق تحرير الفكر وخلق جيل جديد يرفض الانصياع لأوامر المستعمر.

خاتمة الفصل:

إن المتتبع لمواقف الاحتلال الفرنسي من حركة الإصلاح والتجديد سواء في الجزائر أو تونس، يتبين بوضوح أن الاحتلال قد مارس كل أشكال الضغوط من أجل كبح جماح هذه الحركات، فتارة كان يلجا إلى المراوغة وعدم المواجهة وتارة أخرى كان يواجه بشدة وقساوة.

---

[1] الأمين شريط: التعددية الحزبية في تجربة الحركة الوطنية، ديوان المطبوعات الجامعية، قسنطينة:1990، ص 14-15.
[2] عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين، مرجع سابق نقلا عن الأمة سبتمبر 1936، ص8.
[3] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، مرجع سابق، ص152.

والواقع أن الاستعمار ظل يتأسف على أنه أعطى موافقته على فتح تلك المؤسسات التعليمية الثقافية والتساهل مع مؤسسات ثقافية أخرى، وكأنه بذلك أخذ على حين غرة، فقد فوجيء بجحافل من الإصلاحيين، في وقت كان ينعتهم بالضعف والتخلف حينا وبالرجعية أحيانا أخرى، وقد مد يده للطرقيين والمتطفليين ممن رضي عنهم ورضوا عنه، سواء في تونس أو الجزائر وذلك بغية تحقيق أهدافه ومصالحه، مقابل فتات من الماديات على حساب مقومات وسيادة الأمة.

ندرك كذلك أن أكثر من تحمل النشاط الإصلاحي هم الزعماء أمثال عبد الحميد بن باديس، والبشيرالإبراهيمي، وعبد العزيز الثعالبي، وتوفيق المدني، وغيرهم.

لم يتوانى الاستعمار في تدبير المكائد ومحاولات الاغتيال، كما لجأ إلى أسلوب ترويع القادة بالسجن تارة والنفي تارة أخرى.

أما الاتجاهات الأخرى وموقفها من الزيتونيين في الجزائر وتونس فيمكن القول أنها كانت محكومة بالمصالح والنفوذ من جهة وبالزمن وتحوله من جهة أخرى.

فبالنسبة لتونس فقد كان واضحا أن أكثر الاتجاهات التي وقفت في وجه المصلحين المجددين هم المحافظون، حيث قامت معركة عنيفة حتى وإن كان كلاهما قد درس في الزيتونة أو أحد فروعها، فالمحافظون ظلوا متمسكين بالقديم سواء في التعليم أو تطور المناهج في حين أن المجددين كانوا يرون ضرورة التماشي مع العصر دون التخلي عن الأصالة والشخصية، بلغة أخرى السير على الطريق الذي رسمه جمال الدين، ومحمد عبد، وخير الدين باشا، ولعل التيار الذي مسك بزمام الأمور في الأخير هو التيار التغريبي الذي تزعمه بورقيبة ذا الثقافة الفرنسية والذي عمل على قلب الأوضاع لينتهي به الأمر إلى تهميش الجامع الأعظم ودوره وقد ظل الجامع على هذا الحال إلى يومنا هذا.

أما بالنسبة لموقف الاتجاهات السياسية والفكرية في الجزائر، فبغض النظر عن الطرقيين الذين أعلنوا صراحة عن موقفهم المعادي للعلماء وتعاونهم مع الاحتلال ودس المكائد، فإن الاتجاهات الأخرى وإن تباينت مواقفها وأساليبها مع حركة الإصلاح والتجديد إلا أنها كانت تلتقي معها في كثير من الجوانب، وقد يصل الاحتدام بين هذه الاتجاهات إلى حد تبادل التهم والشتائم إلا أن ما كان يجمعها أكثر مما كان يفرقها.

ومهما يكن من أمر فإن الزمن كان كفيلا بأن يقرب بين هذه الاتجاهات الثلاثة الكبر لاسيما بعد الحرب العالمية الثانية وخاصة بعد مجازر 8 ماي 1945 التي عدت منعطفا حاسما في مسار الحركة الوطنية الجزائرية.

وفي بداية الخمسينات أدرك الجميع أنهم أمام عدو واحد يتوجب عليهم توحيد الصف من أجل مواجهته، وأن الاختلاف في كل الحالات لا يفسد ودا للقضية، لاسيما إذا كانت هذه القضية هي تحرير الوطن من الاستعمار.

الخاتمة

الخاتمـــــة:

لقد كان هدف هذا البحث هو محاولة إلقاء الضوء على فترة من أخصب فترات التاريخ الجزائري والمغاربي (1908-1954).

ففي هذه الفترة انتهت تقريبا المقاومة المسلحة التي استمرت لفترة تزيد عن السبعين سنة و بدأت مرحلة جديدة في كفاح هذه الأمة وهي مرحلة الكفاح السياسي الذي يقوم أساسا على كاهل الجمعيات والأحزاب السياسية والمؤسسات التعليمية، التي كان لها الدور الكبير في بلورة ذلك النضال.

والواقع أن النصف الأول من القرن العشرين قد حفل بألوان من الصراع الأيديولوجي والسياسي حول الطريق الذي ينبغي أن تسلكه الجزائر من أجل إزاحة الاستعمار، ومن هنا برزت عدة اتجاهات منها الاتجاه الاستقلالي والاتجاه الاندماجي والاتجاه الإصلاحي الذي رأى أن البناء يتم أولا بالعودة إلى أصول الأمة من دين ولغة، ولضمان مستقبلها توجب ربطها بماضيها المجيد.

وخلال تتبعنا لهذه الفترة لمسنا بكل جلاء أن حركة الإصلاح والتجديد الجزائرية قد أكدت على ضرورة العودة إلى التعليم الصحيح وفتح المدارس وبناء المعاهد أمام أبناء الشعب بكل فئاته، ولما كان الوضع متعذرا كانت تونس بمثابة الخط الإستراتيجي الثاني لحركة الإصلاح من خلال جامع الزيتونة الذي كان بمثابة معهدا مغاربيا وصار عدد الطلبة الذين يؤمونه من الجزائر بالمئات، وذلك في بعثات علمية منظمة منذ أن عاد ابن باديس من تونس سنة 1913 ليثبت أن العلم ليس له حدود و قد كان شعار دعاة الإصلاح "تعلموا توحدوا"[1].

يتضح من خلال هذا البحث حقيقة وهي: أن حركات المهجر كان لها الدور الكبير في بعث النهضة الأدبية والإصلاحية في الجزائر، فإذا كانت كثير من الكتابات تؤكد على دور المهجر من خلال ما قام به العمال والطلبة الجزائريين في فرنسا، بنشاطهم المتميز وفي ذلك إشارة واضحة إلى نجم شمال إفريقيا 1926 وحزب الشعب 1937 بزعامة مصالي الحاج، فإن تونس تعد بلدا رئيسيا في بعث الأمة وتجديد روح المقاومة في النفوس الجزائرية مركزة على الجانب الديني والثقافي، فخاطبت حركة الإصلاح والتجديد الاستعمار بنفس اللغة التي أراد أن يبيد بها الأمة الجزائرية.

---

[1] André nauché: la naissance du nationalisme algérien, 1914-1954, E,M Paris :1962, P 65.

في هذا الإطار يظهر بوضوح الدور الخطر الذي كان لجامع الزيتونة والذي كان على مدى العصور منارة علمية ودينية، رغم أن الحماية حاولت تكبيله بشتى الأساليب خصوصا وأن الزيتونيين سواء من تونس أو الجزائر هم الذين كانوا المصابيح التي أنارت أول الطريق، لذا فإن المؤسسات التعليمية لم تكن أماكن للعبادة والصلاة فحسب وإنما كانت باعثا على نكران الجور ورفض الاستعباد ومحاربة الإحتلال.

وكنتيجة لذلك قامت تلك العلاقة بين المؤسسات التعليمية والنخبة الإسلامية المثقفة، وما ترتب عن هذه العلاقة حيث خلق نسيجا بين البلدين (تونس والجزائر) لاسيما إذا علمنا أن العدو واحد والهم واحد فوجد البلدين نفسيهما في خندق واحد وكانت النتيجة أن تبلور ذلك النضال في شكل إحساس وتعاون بينهما امتد إلى غاية ثورات التحرير وفي ذلك تعبيرا صريحا على مدى الترابط بين الشعبين.

من خلال هذا البحث يمكن التأكيد على أن رواد الإصلاح الجزائريين الذين تخرجوا من الزيتونة هم الذين وضعوا الأساس لبعث فكري وأدبي وإصلاحي كانت نتائجه واضحة في الجانب السياسي والاجتماعي والفكري، ويتبين كذلك أن النهج الذي وضعته جمعية العلماء من خلال مدارسها ومعاهدها وإسهامات العلماء في توجيه الرأي العام، كان لها صدا طيبا في صفوف الجزائريين.

إن نشاط المهاجرين الجزائريين بتونس لم يقتصر على الدراسة بالمعاهد التونسية وعلى الخصوص جامع الزيتونة ثم القيام بنشاط مماثل، ولكنه كان نشاطا زاخرا متعدد الأغراض مختلف الوسائل، مما جعله يفضي إلى نتيجة مرجوة ألا وهي تحقيق حرية الجزائر وتأكيد هويتها العربية الإسلامية.

فلم يكتفي الجزائريون بالنشاط الصحفي والوطني فقط ولكنهم ساهموا إسهامات باهرة في تأسيس الجمعيات الطلابية التي نهضت لتعرف بالقضية الجزائرية وإنشاء الجمعيات الأدبية التي قامت بنشاط فكري وأدبي كبير.

وإذا كان الدارسون قد اعتادوا على ربط ظهور الحركة الإصلاحية في المغرب العربي بصفة عامة وفي الجزائر بصفة خاصة بالتأثيرات القادمة من المشرق وبحركات سياسية معروفة في حين أن الوثائق والأحداث تفيد بأن المغرب العربي كان أسبق في بعض الأحيان إلى مثل هذه الدعوة.

إن الباحث في الأوضاع الفكرية والأدبية والسياسية الجزائرية هو مجبر في كل الحالات على العودة إلى الصحافة التونسية التي تعتبر مصدرا ضروريا لدراسة هذه الفترة، سواء أكان تاريخ الحركة الوطنية أو الحركة الأدبية والفكرية، ذلك أن الصحافة والمجلات التونسية انطوت على تراث زاخر مما أنتجه الجزائريون طوال نصف قرن، وإن الرجوع إلى هذه الصحف كمصدر أساسي يأخذ أهمية اكبر من الثلاثينات إلى حين الاستقلال حيث يبرز الإنتاج الإبداعي والإنشائي والمقالات السياسية التي تشير إلى إنتاج هذا الجيل الذي أصبح فيما بعد عماد الحركة الأدبية والفكرية في الجزائر.

من خلال البحث يمكن كذلك أن نستنتج أن هناك رجالا وهبوا أنفسهم لله وللوطن، فما شغلتهم الدنيا عن قضيتهم الأساسية فعملوا بكل جد من أجل أن تحيا بلادهم حرة مستقلة، فقد آمنوا أن الشيء الثمين يتطلب دوما سعرا غاليا، فضحوا بأوقاتهم وأموالهم وأنفسهم، فلم يعرفوا فتور وقد تأكدوا أن الرسالة التي يحملونها أعظم وأثقل إذا لم يشمروا على سواعدهم ويضحوا بكل ما يملكون.

حقيقة أخرى ترتسم وهي إذا كان الهدف الأسمى لحركة الإصلاح والتجديد هو تحرير الجزائر، فالواقع أنه في جزء هام منه بدأ من تونس باعتبارها كانت معقلا هاما لها، ولربما يعود ذلك إلى هامش الحرية الذي كان متوفرا هناك، حيث أمكن التعبير عن الطاقات الكامنة، فاندمج الجزائريون في الأحزاب وكتبوا في الصحف ومارسوا جميع الأنشطة الأخرى التي حرموا منها في الجزائر.

ولعل من أحسن النماذج التي تدرج في هذا السياق، عبد الحميد بن باديس، إبراهيم أطفيش، أبو اليقضان، توفيق المدني، الطيب بن عيسى وعبد العزيز الثعالبي ومفدي زكرياء وغيرهم.

ثم يجب التأكيد كذلك على أن التعليم الديني والعربي الذي أخذه دعاة الإصلاح على عاتقهم إنما كان يهدف إلى التحرر لأنهم ومنذ الوهلة الأولى أدركوا أن العقبة الرئيسية في طريقهم هو المحتل وأتباعه الذين أرادوا استغلال الدين لخدمة مصالحهم ومصالحه وإبعاد الأمة عن أصالتها ومقومات شخصيتها.

لذا فإن الدور السياسي لحركة الإصلاح كان واضحا إلا لمن كان لا يرى، ولقد جاء في رسالة الإبراهيمي سنة 1954: "وكل ما استعرضت الواجبات وجدت أوجبها وألزمها في أعناقنا الجهاد المقدس، فهو الذي يسقط علينا الواجب ويدفع عنا وعن ديننا العار فسيروا على بركة الله

وبعونه وبتوفيقه إلى ميدان الجهاد المقدس فهو السبيل إلى إحدى الحسنين إما موت ورائه الجنة وإما حياة ورائها العزة والكرامة"[1].

والأكيد أن الإحتلال سواء في تونس أو في الجزائر قد حاول بكل ما يملك من إمكانات ووسائل لتعطيل قاطرة هذه النخبة وتلك المؤسسات التعليمية، ورغم مساعيه لخلق طابور خامس سواء من خلال العملاء أو المأجورين من الطرقية خاصة الذين أشاعوا البدعة والخرافة، أو من خلال بعض الأحزاب السياسية المهادنة، غير أن النخبة الإسلامية أبت إلا أن تكمل الرسالة وتؤدي الواجب كما يجب.

في ختام هذا البحث يمكن لي أن أتساءل عن بعض المؤسسات التعليمية التي كانت إلى وقت قريب منارات علمية ومنبع للعلم، أما اليوم فلم يعد لها ذلك الدور، وهي بحاجة إلى من يحييها ويعيد لها ماضيها المجيد لتكون ملاذا للعلماء والنابهين من هذه الأمة.

يطرح كذلك تساؤلا وهو لماذا هذا التباعد المغاربي؟ في حين حدث التلاقي والتلاحم في فترة عصيبة، فأحست الأمة بوحدتها ووحدة انتمائها، فإذا كانت المؤسسات الدينية شكلت عنصر تلاحم، فان ما يحدث اليوم هو التنافر و الشقاق في حين أن الأمم الأخرى المتفرقة أصلا تتجمع وتزيل خلافاتها رغم اختلاف مكونات شخصيتها، فهل من معيد إلى ذلك التآخي وتلك الوحدة؟

إن التاريخ يقر بأن الأمة المغاربية إنما هي أمة واحدة؟ من حيث لغتها ودينها وأصلها.

ويمكن أن نشير كذلك إلى نتيجة مهمة وهي أن العلم ليس له حدود فحيثما كان فثم وجهة المتعلم، والواقع أن هذا المبدأ هو الذي سارت عليه حركة الإصلاح والتجديد في الجزائر.

أرى أن الدور الذي قام به المصلحون المجددون في الجزائر لم يوف حقه كما ينبغي، لاسيما وأن دورهم في إحياء أمجاد الأمة لا يستهان به، بعد أن كاد الظلام أن يعم وأن يتسرب اليأس إلى النفوس، وباستثناء رائد النهضة والإصلاح الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي تناولته أقلام كثيرة من خلال التعرض لحياته وأعماله ونشاطاته، فإن الكثير من أولائك الرواد المصلحين لازالوا بحاجة إلى أقلام أمينة ساهرة للتعريف بدورهم وجهدهم في البناء الفكري والحضاري للأمة الجزائرية.

والله من وراء القصد

[1] البصائر: العدد 276، السنة السابعة، 1948، ص 87.

الملاحق

الملاحـــــــق:

الملحق رقم 01

قائمة الناجحين في إمتحان شهادة الدراسة الإبتدائية العربية بمدارس جمعية العلماء*

مركز العاصمة

المشاركون 24 الناجحون 16

أسماء الناجحين مداارسهم رتبهم الملاحظات

زهور ونيسي سلام باي 1 حسن

جميلة خليفات حسين داي 2 حسن

حمزة معمري القليعة 3 بدون ملاحظة

عائشة سحنون سانطوجان 4 بدون ملاحظة

زبيدة مومن القليعة 5 بدون ملاحظة

حورية شكري حسين داي 6 بدون ملاحظة

الزبير الدباغ بوفاريك 7 بدون ملاحظة

اسماعيل بوعويشي حسين داي 8 بدون ملاحظة

رشيد نبات القليعة 9 بدون ملاحظة

محمد عوين القليعة 10 بدون ملاحظة

عبد الرحمن حشمي القليعة 11 بدون ملاحظة

أحمد قطاف حسين داي 12 بدون ملاحظة

الرشيد زنجيل بير خادم 13 بدون ملاحظة

النوار كدية حسين داي 14 بدون ملاحظة

الناصر نبات القليعة 14 بدون ملاحظة

---

* مذكرات خير الدين: الشيخ محمد خير الدين ومشاركته في جمعية العلماء وجبهة التحرير الوطني ومجلس الثورة ، ج1، مطبعة دحلب، حسين داي، الجزائر:1985، ص120.

الملحق رقم 02

مدرسة دار الحديث بتلمسان

أسندت جمعية العلماء مهمة تنشيط الحرة الإصلاحية بالغرب الجزائري إلى الشيخ البشير الإبراهيمي، فأشرف على تنظيم الشعب وإنشاء المدارس، وكان من بينها مدرسة (دار الحديث بتلمسان) فقد دعا سكان هذه الناحية إلى الإكتتاب لبناء المدرسة وأشرف على إنشائها ووضع تصميمها وجعلها عدة أقسام، وخصص كل قسم لعمل من الأعمال، فقسم للصلاة، وآخر للمحاضرات، وثالث للتعليم.

وهي نمط فريد بين المدارس التي أنشئت في تلك الفترة، في هندسة بنائها وتخطيطها، وقد اختار لها مؤسسها اسم (دار الحديث) تعبيرا عن مبادئ الحركة التي تدعو إليها، وهي الرجوع إلى السلفية النقية التي تستمد أحكامها من المصادر الإسلامية الأصلية (الكتاب والسنة وهدي السلف)، ومحاكاة لدور الحديث المنتشرة في بعض البلدان الإسلامية ومن بينها (دار الحديث الأشرفية بدمشق) التي شغل بها منصب أستاذ، وبعد اكتمال البناء وجه الشيخ البشير الإبراهيمي دعوة عامة إلى النخبة في جميع عمالات القطر الجزائري لحضور حفل الإفتتاح في صيف سنة 1937م.

وفي أوائل الخمسينات ألحقت بها مدرسة أخرى ملاصقة لها تحمل إسم (عائشة أم المؤمنين) خصصت للبنات، وتمخضت (دار الحديث) للبنين وبلغ عدد تلاميذها نحو الألفين.

وحضر هذا الإحتفال عدد من رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وبعض علماء المغرب الشقيق من بينهم (الأستاذ إبراهيم الكتاني) شاركوا في حفل الإفتتاح، وهذه صورة المدرسة وبعض المحتفلين، ثم صورة لمعلمي (دار الحديث) وديرها، وصورة لمعلمات (مدرسة عائشة) مع المدير ورئيس جمعية العلماء.[1]

---

[1] البصائر: العدد 305 السنة 7

الملحق رقم 03

نجاح علمي مشرف البعثة الجزائرية الزيتونية لجمعية العلماء*

لا تزال البشائر ترى على الشعب الجزائري المتطلع إلى نتائج كفاحه المرير في الميدان الثقافي.

فلقد سبق أن زفت إليه بشرى تخرج ثلاثة وأربعين طالبا جزائريا بتحصيلهم على شهادة "التحصيل الزيتونية" في امتحان الدورة الأولى – واليوم يسرنا أن تلمع في أفقه بشارة أخرى تزيده إيمانا برجاحة المستقبل و بهائه و جلاله، و تدفعه قدما إلى التفاني في حب العلم و التضحية في سبيله.

الناجحون بشهادة التحصيل :

1) الدراجي شابو — 4) بوالصوف المولود

2) عاشوري حمودة — 5) بوعويش عمر

3) معاش عمار — 6) بوخبزة محمود

7) عقال عبد الحميد — 12) شابي محمد البشير

8) رحمون عبد الله — 13) الجيلالي بن العربي كينة

9) عياط محمود — 14) ترعة الطيب

10) كرام محمد علي — 15) كافي محمد

11) عبادة علي

المراسل (دريدي محمد).

* دريدي محمد: "البعثة الجزائرية إلى الزيتونة"، مجلة الهداية، العدد 154، طبع شركة فنون الرسم والنشر والصحافة، تونس: 2003، ص65.

الملحق رقم 04

قالت (الزهرة) الزاهرة[*]

"وأحيلت الكلمة إلي حضرة الأستاذ الجليل و المصلح الكبير فضيلة الشيخ السيد عبد الحميد بن باديس (ممثل الجزائر) فتقدم و ارتجل خطابا فياضا بالشعور الإسلامي الصميم و العاطفة الإفريقية السامية.افتتحه بحمد الله و السلام على نبيه رسوله و مصطفاه وآله و صحبه ومن والاه. ثم قال[**]:

أيها الاخوان الكرام :

أيتها الأخوات الكريمات:

أرجو أن تعتبروني جنديا من جنود الإسلام والعروبة في القطر الجزائري لا أكثر ولا اقل، واني احمل تحيات الأمة الجزائرية إلى شقيقتها الأمة التونسية و مشاركة الجزائر لتونس في هذه الذكرى الطيبة وهذا الحفل الكريم، كما أقدم مشاركتي الخاصة.

وان الروابط عديدة بين الجزائر و تونس، بل بين المغرب العربي بصفة عامة: طرابلس، وتونس، والجزائر، والمغرب الأقصى، كالروابط العلمية والروابط السياسية التي ذاقت بها هذه الأقطار حلاوة الاستقلال تحت ظل الإسلام و التاريخ يشهد ذلك.

وأنا شخصيا أصرح بان كراريس البشر صفر الصغيرة الحجم الغزيرة العلم هي التي كان لها الفضل في اطلاعي علي تاريخ أمتي و قومي، و التي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت بي اليوم لان أكون جنديا من جنود الجزائر.

وهذه الذكرى التي تقام اليوم انما هي تقام لرجل واحد كان سببا في حياة امة، و القصد منها هو اعتراف بالجميل وهو من أعظم مظاهر الكمال الإنساني والشكر كما لا يخفاكم سبب في المزيد عند الله عز وجل و عند عباده.

وطالما وصفت الامة الشرقية بكفران النعم، و عدم تقديرها لعظمائها، وها نحن نقيم الدليل بهذه الذكرى و أمثالها على أننا من الشاكرين للنعم لا الكافرين بها .

وختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس خطابه الارتجالي البليغ ببسطة عن مشاركة المرحوم الشيخ النخلي للفقيد في تشييد النهضة العلمية المباركة ومقاومة الركود و الجمود وقال: هذان الرجلان العظيمان نقدمهما لأبنائنا لينحوا نحوهم و يقتفوا أثرهم لنصل إلى سعادة البشرية كلها لا سعادة الشمال الإفريقي أو تونس فقط .

و السلام عليكم و رحمة الله .

و بأثر انتهاء خطاب الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي قوبل و قوطع بعواصف متتالية من تصفيق واستحسان". (2) (3).

---

[*] الزهرة: مجلة شهرية، صاحب امتيازها الطيب العنابي، جويلية 1935، مطبعة الإتحاد التونسي، صدر منها 57 عدد، تونس 1935.

[**] مجلة الهداية: العدد 154، تونس: محرم 1424، أفريل 2003، ص74.

الملحق رقم 05

كفـــاح مرير بقلم الأستاذ سيد قطب*

أرسل سيد قطب هذه الكلمة البليغة الجامعة إلي البصائر لتنشر صفحة من جهاد احد العلماء العاملين من أعلام هذه النهضة التي لن تقف دون أن تصل بالإسلام والمسلمين إلي أهدافهم السامية في طريق كفاحهم من اجل الوحدة والحرية والاستقلال.

كفاح الجزائر في سبيل البقاء، كفاحها وان تظل عربية وان تظل مسلمة. هذا الكفاح له في نفس دلالة خاصة قد لا تخلص لي من كفاح أي بلد آخر من البلاد العربية أو البلاد الإسلامية.

لقد أريد بالجزائر أن تكون أندلسا جديدة، أريد بها أن تنسلخ من جسم الوطن العربي الإسلامي، وان تبتلعها الصليبية الأوروبية الجديدة، ومضي أكثر من قرن والمحاولات الجبارة لا تهدأ لحظة ولا تكف، واستخدمت كل الوسائل التي لم تعرف البشرية أقصى منها ولا أمكر ولا افتك.

ولم يعرف بلد آخر في الشرق أو الغرب ما عرفته الجزائر من أساليب الصليبية حتى الأندلس وحتى فلسطين لم تعرفا هذه الأساليب، لقد امتدت هذه الأساليب إلى تخليط الأنساب و تحطيم الأخلاق، امتدت إلى إزالة الصبغة العربية والصبغة الدينية.

لهذا كله تخلص لي من كفاح الجزائر دلالة لا تخلص لي من كفاح أي بلد آخر، دلالة مطمئنة تدعو إلى الثقة و التفاؤل، إن هذا العالم الإسلامي لن يموت و لن يفنى.

إن في الوطن الإسلامي حيوية كامنة لا يغلبها شيء... هذا هو الخاطر الذي يخالج نفسي كلما نظرت في كفاح الجزائر و نظرت في تاريخ هذا الكفاح ... إن العالم الإسلامي لا يكاد يعرف شيء عن هذا الكفاح إن تاريخه لم يكتب بعد بالتفصيل، ولم تعرضه أقلام أمينة نزيهة عالمة ببواطن الأمور وأنا اقترح علي (جمعية علماء الجزائر) أن تعرض تاريخ هذا الكفاح علي الناس بالغة العربية و بجميع اللغات، إن هذا التاريخ سيكون له وقع عظيم، لأنه سيطلع اليائسين والمترددين و الضعاف في العالم الإسلامي كله علي ان الحيوية الكامنة في جسم الوطن الاسلامي لا غالب لها،انه سيد المكافحين في الأرض كلها بدفعة قوية من الرجاء الحار في الخلاص، ونحن محتاجون الي هذه الدفعة القوية في معاركنا الفاصلة التي ستشب يوما في كل أجزاء العالم الاسلامي.

لذلك كله احب ان يعرض كفاح الجزائر علي أنظار البشرية جمعاء وان تعرض الام الجزائريين علي المكافحين الذين تصب عليهم الآلام اليوم، لكي يدرك الجميع أن آلام الأرض كلها لا تقتل امة تريد الحياة"، ولا تعوق شعبا يعتزم الكفاح.

---

* محمد خير الدين: مذكرات الشيخ محمد خير الدين، مصدر سابق، عن البصائر، العدد 214، السنة5، ص401-404.

ثم لكي يعرف المكافحون في العالم الإسلامي حقيقة العنصر الذي يحميهم من الانهيار ويمسك بهم من التفكك و التفتت، و سيجدون هذا العنصر بارزا في كفاح الجزائر، انه العقيدة و انه اللغة التي نزلت بها هذه العقيدة.

لقد وجه الاستعمار همه كله إلى سحق العقيدة وسحق اللغة.. وعن هدا الطريق كاد يصل إلى غايته" فلما انتفضت الجزائر بالحياة كانت العقيدة هي المشعل الذي أضاء لها الطريق و كانت اللغة هب الحبل الذي تتماسك به الجموع الشاردة في الظلام.

و لقد عرفت جمعية علماء الجزائر كيف توثق هذا الحبل و كيف ترفع ذلك المشعل و كيف تخلق ذلك البعث الذي لن تموت الجزائر بعده ولن تهين و لن تستسلم.

وأنني لا أكتفي اليوم بهذه الكلمات القلائل تحية لجمعية الجزائر و شيخها الجليل الذي يجاورنا اليوم، فيبعث فينا من روحه القوي شعاعا حارا، و يشعرنا بان في العالم الإسلامي رجالا... رجالا من طراز فريد ولن يموت هذا العالم وهو يبعث من أعماقه بمثل هؤلاء الرجال.

سيــد قطــب

مذكرات الشيخ محمد خير الدين: ص 401...404 عن البصائر العدد214 السنة 05

الملحق رقم 06

نشيد كشافة الرجاء بقسنطينة[1]

خضناك للمجد والعلاء يا أرض تيهي على السماء
فنحن (كشافة الرجاء) ونحن جوابة البلاد

إنا على ربنا اعتمدنا إنا بتاريخنا إعتددنا
إنا على الناس قبل شدنا وسيد الناس لا يساد

(سيرتا) لنا معقل حصين ونحن جند لها أمين
(سيرتا) لأبنائها عرين وهم ليوث بها شداد

نطوف في أرضها الزكية كالطير في الصبح والعشية
لنسعد الأنفس الشقية وندني الإخوة البعاد

أخلاقنا : الصدق والأمانة والرفق والحذق والفطانة
والعلم والحلم والرزانة والعزم والحزم والرشاد

في عزمنا اليوم أن نعيدا تاريخنا الماضي المجيد
ومن يكن عزمه شديدا لا بد أن يبلغ المراد

محمد العيد آل خليفة

---

[1] مجلة الشهاب: الجزء 6 مجلد 12، ص198.

الملحق رقم 07

رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

يوجه نداء إلى الشعب الجزائري

بمناسبة اندلاع الثورة يوم 1 نوفمبر 1954

نشر في الصحف الشرقية وتحت يدي نسخة منه

أيها المسلمون الجزائريون:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

حياكم الله وأحياكم، وأحيا بكم الجزائر، وجعل منكم نورا يمشي من بين يديها ومن خلفها، هذا هو الصوت الذي يسمع آذان الصم وهذا هو الدواء الذي يفتح الأعين المغمضة، وهذه هي اللغة التي تنفذ معانيها إلى الذهان البليدة، وهذا هو المنطق الذي يقوم القلوب الغلف وهذا هو الشعاع الذي يخترق حجب الأوهام.

وكان العالم يسمع بلايا الإستعمار الفرنسي لدياركم، فيعجب كيف لم تثوروا، وكان يسمع أنينكم وتوجعكم منه، فيعجب كيف تؤثرون هذا الموت البطيء على الموت العاجل المريح، وكانت فرنسا تسوق شبابكم إلى المجازر البشرية في الحروب الإستعمارية فتموت عشرات الآلاف منكم في غير شرف ولا محمدة، بل في سبيل فرنسا وتوسيع ممالكها وحماية ديارها، ولو أن العشرات من الألاف من ابنائنا ماتوا في سبيل تحرير الجزائر لماتوا شهداء، وكنتم بهم سعداء.

أيها الأخوة الجزائريون:

احتلت فرنسا وطنكم من قرن وربع قرن وشهد لكم التاريخ بأنكم قاومتموها مقاومة الأبطال، وثرتم عليها مجتمعين متفرقين نصف هذه المدة فما رعت في حربها لكم دينا، ولا عهدا، ولا قانونا، ولا إنسانية، بل ارتكبت كل أساليب الوحشية، من تقتيل النساء والأطفال والمرضى، وتحريق القبائل كاملة بديارها وحيواناتها وأقواتها.

ثم حاربتم معها في صفها وفي سبيل بقائها نصف هذه المدة، ففتحت بأبنائكم الأوطان وقهرت أعداءها وحمت بهم وطنها الأصلي، فما رعت لكم جميلا، ولا كافأتكم، بل كانت تنتصر بكم ثم تخلكم، وتحيا بأبنائكم ثم تقتلكم، كما وقع لكم معها في شهر مايو سنة 1945، وما كانت قيمة ابنائكم الذين ماتوا في سبيلها وجلبوا لها النصر، إلا أنها نقشت أسماء بعضهم في الأنصاب التذكارية فهل هذا هو الجزاء؟

طالبتموها بلسان الحق والعدل والقانون والإنسانية من أربعين سنة، بأن ترفق بكم وتنفس عنكم الخناق قليلا فما استجابت، ثم طالبتموها بحقكم الطبيعي الذي يقركم عليه كل انسان وهو ارجاع أوقافكم ومعابدكم وجميع متعلقات دينكم، فأغلقت آذانها في إصرار وعتو، ثم ساومتموها على حقوقكم السياسية بدماء أبنائكم الغالية التي سالت في سبيل نصرها، فعميت عيونها عن هذا الحق الذي يقرره حتى دستورها، ثم هي في هذه المراحل كلها سائرة في معاملتكم من فظيع إلى أفظع.

أيها الإخوة الجزائريون الأبطال:

لم تبق لكم فرنسا شيئا تخافون عليه أو تدارونها لأجله، ولم تبق لكم خيطا من الأمل تتعللون به، أتخافون على أعراضكم وقد انتهكتها؟ أم تخافون على الحرمة وقد استباحتها؟ أم تخافون على الأموال وقد تركتكم فقراء تلتمسون قوت اليوم فلا تجدونه؟ أم تخافون على الأرض وخيراتها، وقد أصبحتم فيها غرباء حفاة عراة جياعا أسعدكم من يعمل فيها رقيقا زراعيا يباع معها ويشتري، حظكم من خيرات بلادكم النظر بالعين والحسرة في النفس! أم تخافون على القصور وتسعة أعشاركم يأوون إلى الغيران كالحشرات والزواحف؟ أم تخافون على الدين؟ ويا ويلكم من الدين الذي لم تجاهدوا في سبيله، ويا ويل فرنسا من الإسلام الذي ابتلعت أوقافه وهدمت مساجده، وأذلت رجاله، واستعبدت أهله ومحت آثاره من الأرض، وهي تجتهد في محو آثاره من النفوس.

أيها الإخوة المسلمون:

إن فرنسا لم تبق لكم دينا ولا دنيا، وكل إنسان في هذا الوجود البشري إنما يعيش بدين ويحيا بدنيا، فإذا فقدهما فبطن الأرض خير له من ظهرها.

وإنها سارت بكم من دركة إلى دركة حتى أصبحت تتحكم في عقائدكم وشعائركم وضمائركم، فالصلاة على هواها، والحج بيدها لا بأيديكم، والصوم برؤيتها لا برؤيتكم،وقد قرأتم وسمعتم من رجالها المسئولين عزمها على احداث "إسلام جزائري" ومعناه إسلام ممسوخ، مقطوع الصلة بمنبعه في الشرق وبأهله من الشرقيين.

أيها الإخوة الأحرار:

إني كلما ذكرت ما فعلت فرنسا بالدين الإسلامي في الجزائر، وذكرت فظائعها في معاملة المسلمين –لا لشيء إلا لأنهم مسلمون– كلما ذكرت ذلك احتقرت نفسي واحتقرت المسلمين وخجلت من الله ان يراني ويراهم، مقصرين في الجهاد لإعلاء كلمته، وكلما استعرضت الواجبات وجدت واجبها وألزمها في أعناقنا الجهاد المقدس، فهو الذي يسقط علينا الواجب ويدفع عنا وعن ديننا العار، فسيروا على بركة الله وبعونه وبتوفيقه إلى ميدان الجاهد المقدس فهو السبيل الوحيد إلى إحدى الحسنين: إما موت وراءه الجنة وإما حياة وراءها العزة والكرامة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمد البشير الإبراهيمي

رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.[*]

---

[*] محمد البشير الإبراهيمي: جريدة البصائر: عدد 276 السنة السابعة.

المصادر والمراجع

مصـــادر ومراجـــع البحـــث

أولا: الكتب العربية:

أ - المصـــادر:

1) القرآن الكريـــم.

2) ابن باديس عبد الحميد: مجالس التذاكير، ط1، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية 1982.

3) ابن نبي مالك: شاهد القرن: دار الفكر الجزائر، المرادية، ص،ب 130.

4) ابن عاشور محمد الفاضل: أليس الصبح بقريب، الشركة التونسية للتوزيع، ط 2، تونس: 1967.

5) ابن عاشور محمد الفاضل: الحركة الأدبية والفكرية في تونس، الدارس التونسية، 1970.

6) الإبراهيمي محمد البشير: آثار الإمام البشير الإبراهيمي، الجزء 3 و4، الشركة الوطنية ن.ت، الجزائر: 1981.

7) الثعالبي عبد العزيز: روح التحرير في القرآن، ترجمة حمادي الساحلي دار الغرب الإسلامي، 1985 (الطبعة الأولى، باريس: 1905).

8) الحداد الطاهر: التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة، تقديم وتحقيق أنور بوسنينة، الدار التونسية للنشر، تونس1981.

9) الحداد الطاهر: إمرأتان في الشريعة والمجتمع، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، الطبعة الثانية، تونس: 1997.

10) حماني أحمد صراع بين السنة والبدعة، 3أجزاء، دار البعث قسنطينة: 1984.

11) خير الدين محمد: الشيخ محمد خير الدين ومشاركته في جمعية العلماء وجبهة التحرير الوطني ومجلس الثورة، ج1، مطبعة دحلب، حسين داي، الجزائر: 1985.

12) عباس فرحات: ليل الإستعمار، تعريب أبو بكر رحال، مطبعة المحمدية، فاس، المغرب، د.ت.

13) المدني أحمد توفيق: حياة كفاح (مذكرات) ، ج 1 وج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1975–1977.

14) الميلي مبارك محمد: رسالة الشرك ومظاهره، ط2، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر: 1966.
15) محمد لخضر حسين: تونس وجامع الزيتونة، جمع وتحقيق علي الرضا، تونس: 1961.

ب -المراجــع:

1- ابن خلدون عبد الرحمان ابن محمد، المقدمة: درويش الجودي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت:2002.
2- ابن خلدون عبد الرحمان ابن محمد: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، م5، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت: 1969.
3- ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي كرم الشيباني: الكامل في التاريخ، دار الكتاب – بيروت: 1965.
4- أحمد خالد: أضواء من البيئة التونسية على الطاهر الحداد ونضال جيل، الدار التونسية للنشر، تونس: 1977.
5- أمين أحمد: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، مصر 1965.
6- بوصفصاف عبد الكريم: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية (1931-1945)، دار البعث قسنطينة: 1981.
7- الدكتور عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث والمعاصر (محمد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجا) جزء1، والجزء2 غير مطبوع دار الهدى عين مليلة، الجزائر: 2005.
8- بوصفصاف عبد الكريم: رواد النهضة والتجديد في الجزائر (1889-1965)، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر: 2007.
9- بوصفصاف وآخرون: معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج 1،ج2، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة منتوري قسنطينة 2002-2004، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر 2004.

10 – تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ط 2، الشركة و.ش.ت، الجزائر: 1981.

11 – رابح تركي: التعليم القومي والشخصية الجزائرية (1931–1956)، الشركة و.ش.ت، الجزائر: 1983.

12 – الجابري محمد صالح: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس (1900–1962)، الدار العربية للكتاب (ش.و.ت.ج)، الجزائر: 1983.

13 – الجابري محمد صالح: التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، ط 1، دار الغرب الإسلامي، لبنان: 1991.

14 – دبوز محمد علي: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، دار البعث، الجزائر: 1982.

15 – دبوز محمد علي: أعلام الإصلاح في الجزائر (1918–1975)، ج3، ط1، مطبعة البعث، قسنطينة: 1984.

16 – سعد الله أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية، ج 2،ج3، الشركة الوطنية للنشروالتوزيع، الجزائر: 1983.

17 – سعد الله أبو القاسم: أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج 4، دار الغرب الإسلامي، لبنان: 1990.

18 – شارل أوندري جوليان: إفريقيا الشمالية تسير، تعريب منجي سليم وآخرون، الدار التونسية للنشر، تونس: 1976.

19 – طه الولي: المساجد في الإسلام، ط1، دار العلم للملايين، بيروت: 1998.

20 – طه الحاجري: جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة: 1968.

21 – محجوبي علي: النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر لماذا فشلت في مصر وتونس ونجحت في اليابان، تونس: 1982.

22 – مرتاض عبد المالك: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925–1954)، الشركة و.ش.ت، الجزائر: 1983.

23 – ناصر محمد: المقالة الصحفية، ط2، الشركة و.ت.ش، الجزائر: 1981.

24 – ناصر محمد: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939، الشركة و.ش.ت، الجزائر: 1980.

25 – نويهض عادل: أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، د.ت.

26 – هلال عمار: العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية في ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين (13هـ، 14هـ)، ديوان المطبوعات الجامعية ابن عكنون، الجزائر: 1995.

27 – يحي جلال: المغرب العربي الكبير وحركات التحرير والإستقلال، الجزء 4 (الفترة المعاصرة)، دار النهضة العربية، بيروت: 1981.

ثانيا: المراجع باللغة الفرنسية:

1- Andre Nouchi : La naissance de nationalisme Algérienne , (1914-1954), E.M PARIS : 1962.

2- Ayadi Toufik : Mouvement réformiste et populaire en Tunis (1906-1912), P.B, Université de Tunis : 1996.

3- Laroui Abdellah : Histoire de maghreb en essai de synthèse français, Paris : 1970.

4- Charles André Julein : L'afrique du nord en marche, Paris : 1972.

5- Charles Robert Ageron : Histoire de l'Algérie contemporaine (1930-1979), presse universitaire de France, 7ème Edition, Paris : 1980.

6- Merad Ali : Le réformisme musulmane en Algérie du 1925-1940 Martan, Paris: 1962.

7- Sekfali AbdelRahim : Le mouvement nationale Algérienne (1900-1956), Document universitaire, Constantine : 2003.

ثالثا: الدوريات:

1) ابن باديس عبد الحميد: "مبادئنا وغاياتنا وشعارنا"، المنتقد، العدد الأول، الجزائر: 02 جويلية 1925.

2) ابن باديس: الشهاب، جريدة ومجلة 12 نوفمبر 1925 / أوت 1939.

3) أبو اليقضان: "الرسائل الجزائرية"، جريدة المنير، العدد176، تونس: 29 جانفي 1921.

4) أبو اليقضان: "الصحافة الأهلية في القطر الجزائري"، جريدة الأمة، العدد106، تونس: جانفي 1937.

5) البكوش سمير: "النضال الزيتوني في الخمسينات من خلال أحداث 15 مارس 1951"، الزيتونة: الدين والمجتمع والحركات الوطنية في المغرب العربي، منشورات المعهد الأعلى للحركة الوطنية في تونس، العدد11، تونس 6/5 ماي 2002.

6) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: جريدة البصائر، قسنطينة، الجزائر: 27 ديسمبر 1935 / أوت 1939.

7) حماني أحمد: "في تونس"، مجلة الأصالة، العدد05، الجزائر: 1978.

8) راسم عمر: "التجنيد الإجباري في الجزائر"، جريدة التقدم، العدد 22، تونس: 26 ديسمبر 1907.

9) الزاهري سعيد: "الوحدة المغاربية ضرورة تاريخية"، مجلة الوزير، العدد 48، تونس: 21 مارس 1929.

10) الزيدي علي: "الوضع العام للتعليم الزيتوني حتى إصلاح 1951"، المجلة المغربية، العدد 33، تونس: 1984.

11) الشابي علي: "الشيخ سالم بوحاجب مصلحا مجددا"، في رحاب المعرفة، السنة الأولى، العدد01، تونس: فيفري 1998.

12) الشابي علي: "أي تأثير لتونس في شخصية الصلح الجزائري الكبير الإمام ابن باديس"، مجلة الهداية، العدد154، تونس: أفريل2003.

13) الشابي محمد لطفي: "الإفتتاحية"، الندوة الدولية حول الزيتونة الدين والمجتمع والحركات الوطنية في المغرب العربي ، منشورات المعهد الأعلى للحركة الوطنية، العدد 11، تونس: 06/05 ماي 2002.
14) شاكر محمد: "فتوى في التجنس"، جريدة العصر الجديد ، العدد 174، تونس: 15 ديسمبر 1923.
15) شريط عبد الله: "مفهوم الثورة"، مجلة الفكر، العدد12، تونس: نوفمبر 1957.
16) شيبان عبد الرحمان: "الذكرى الأربعين لوفاة الشيخ الشاذلي بن القاضي"، مجلة الأصالة، العدد07، الجزائر:1978.
17) الصغير اعميرة عليه: "الزيتونة واليسار الفرنسي وحرية الفكر من خلال قضيتي الثعالبي والحداد 1904–1930"، الندوة الدولية حول الزيتونة الدين والمجتمع والحركات الوطنية في الغرب العربي، منشورات المعهد الأعلى للحركة الوطنية، العدد11، تونس: ماي 2002.
18) عباس فرحات: "فرنسا هي أنا"، جريدة الوفاق الفرنسي الإسلامي ، العدد 34، الجزائر: مارس1934م.
19) العلوي محمد فلاح: "التعليم في الزيتونة والقرويين بين التقليد والتجديد"، الندوة الدولية حول الزيتونة الدين والمجتمع والحركات الوطنية في المغرب العربي ، منشورات المعهد الأعلى للحركة الوطنية بتونس، العدد11، تونس:6/5 ماي2002.
20) الغلافي عبد الكريم: "النخبة وأهل الكتاب في عهد الحماية"، الندوة الدولية حول الزيتونة الدين والمجتمع والحركات الوطنية في المغرب العربي ، منشورات المعهد الأعلى للحركة الوطنية، العدد11، تونس: 6/5 ماي 2002.
21) القباح عبد الله: "حال العلماء اليوم"، جريدة السعادة، عدد خاص، المغرب:13 أفريل 1915.
22) المدني أحمد توفيق: "ليحيا الريف حرا مستقلا"، مجلة إفريقيا، العدد14، تونس: ماي 1925.
23) اليعلاوي عبد الرحمان: "في الإتحاد قـــوة"، مجلة العرب، العدد08، تونس: 1924.

24) **<u>رابعا: الرسائل:</u>**

1/ الدكتور بوصفصاف عبد الكريم: الأبعاد الثقافية والاجتماعية والسياسية في حركتي محمد عبده وعبد الحميد بن باديس (دراسة فكرية وتاريخية مقارنة) أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر، جامعة تونس، السنة الجامعية 1996–1997.

2/ الجريبي جلول: أسس النهضة عند عبد العزيز الثعالبي، رسالة دكتوراه دولة في العلوم الإسلامية، السنة الجامعية 1987–1988، تونس.

3/ خمري الجمعي: حركة الشبان الجزائريين 1900–1930، معهد العلوم الاجتماعية، رسالة دكتوراه، جامعة قسنطينة، الجزائر: 1994.

الفهارس

أولا: فهرس الأعلام:

-أ-

ثانيا: فهرس الأماكن والبلدان:

-أ-

-ب-

-ت-

-و-

-ي-

ثالثا: فهرس التنظيمات (الجمعيات، النوادي، الأحزاب، المؤسسات)

رابعا: فهرس الجرائد والمجلات

فهـرس الموضوعـات